أثر العوامل الجغرافية

فى

الفتوح الإسلامية

تأليف

محمد أحمد حسونه

أستاذ التاريخ الإسلامى سابقاً
بكليـــة دار العلوم
جامعة القاهرة

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة - القاهـرة

أثر العوامل الجغرافيّة

فى

الفتوح الإسلاميّة

تأليف

محمد احمد حسونه

أستاذ التاريخ الإسلامى سابقاً

بكليـــة دار العلوم

جامعة القاهرة

دار نهضة مصر للطبع والنشر

الفجالة - القاهـرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وله الحمد على ما أنعم

وبعد ، فإن كلية دار العلوم رأت أن يدرس لطلابها شيء من الجغرافيا التاريخية الإسلامية يعينهم على تفهم التاريخ الإسلامي وما يرتبط به . وقضت الظروف أن يسند إليّ تدريس هذه المادة الجديدة التي لا أعلم لها كتاباً مناسباً في اللغة العربية .

ولما كنت عديم الخبرة بهذا الموضوع ، فقد رجوت بعض علمائنا الفطاحل في الجغرافيا أن يكتبوا فيه ، ولو كانت كتابتهم مقصورة على العناصر المهمة . ولكنهم اعتذروا بضيق وقتهم ، وهو عذر حقيقي بسبب ما يضطلعون به من مهام الدولة .

ومن ثم عكفت على تتبع آثارهم وجعلت أساس عملي رسالة قدمها السيد الأستاذ حسن جوهر لنيل درجة الماجستير فاحتذيتها احتذاء يكاد يكون كلياً . واستعنت بما كتبه السيد الأستاذ مصطفى عامر وكيل وزارة التربية والتعليم ، والسيد الأستاذ الدكتور عباس عمار . ولم أتورع عن الأخذ من كتابات هؤلاء العلماء الأعلام ، وكثيراً ما نقلت أفكارهم بأسلوبهم خشية

أن أضل إذا أنا حاولت تغيير الصيغة التي اختاروها . ورحم الله امرأ عرف حدود جهله ووقف عندها .

فما جاء في هذه الوريقات من صواب فرده إلى هؤلاء العلماء وأمثالهم ، وما ورد فيها من خطأ فرجعه إلى تقصيري . ورجائي أن يكون هذا الخطأ من الجسامة بحيث يحفز أحد هؤلاء المتخصصين إلى التأليف في موضوع حان الوقت لتدريسه .

المصنف
محمد أحمد حسونه

الفصل الأول

جغرافية بلاد العرب

تقع بلاد العرب بين الهند والصين وما والاهما إلى الشرق ، وبلاد الحبشة والصومال والسودان ومصر ومن ورائها أوروبا إلى الغرب ، والعراق والجزيرة والشام إلى الشمال ، وجزيرة سقطرى وساحل أفريقية الشرقى إلى الجنوب . فهى ، إذن ، وسط العالم المعمور قديماً ؛ وهى بحكم موقعها وسيطة فى تبادل سلع تلك الأقاليم المختلفة المناخ والمتباينة الغلات . وكذلك كانت منذ عرفها التاريخ قبل مولد المسيح عليه السلام بألف وخمسمائة عام .

وكأنى بالطبيعة التى حابتها فى توسط موقعها لم تقف عند هذا الحد من المحاباة ، بل جاملتها فى ناحية التضاريس كذلك ، بحيث تكون مزايا الموقع مخصصة لأهلها : ذلك بأنها أحاطتها بسور جد متين لا يسهل على غير أهلها التسلل خلاله إلى قلبها . وما كان لأجنبى أن يتوغل فيها وهو إذا أراد دخولها من الشمال اعترضته صحراء النفود المترامية الأطراف وفيها كثبان الرمل المتنقلة الخالية من النبات ، بينما بقيتها ينبت عشبها فى الشتاء والربيع فى مواطن مختلفة ومبعثرة ومتباعدة أحياناً ، بحيث لا يهتدى إليها إلا أهلها الذين نشئوا فيها وعرفوا مسالكها . وهم — على قلة عددهم — يتنقلون فى جنباتها بمعيزهم وشائهم وإبلهم ويقاسون شظف العيش .

وإذا أخذنا برأى بعض الجغرافيين وأدخلنا بادية السماوة والحماد فى حدود جزيرة العرب ، كانت الكارثة أعظم على من تسول له نفسه اختراق إحداهما فإنهما تكادان تكونان عديمتى الماء والنبات ، إذ لا عيون ولا آبار بهما . وغاية ما ينيل الصدى غدران أو قل برك طبيعية متباعدة وخزانات صناعية يحفظ فيها ماء المطر ، وعليها علامات خاصة يعرفها أهل هذه الجهات ولا يفطن إليها غيرهم . ومثال ذلك أن خلفاء الإسكندر المقدونى حاولوا غزو بلاد العرب فباءوا بالفشل لقلة الماء والجهل بالمسالك .

فإذا اجتاز الأجنبى الحماد أو بادية السماوة وقطع النفود الكبرى اعترضته هضبة مرتفعة سميت نجداً لارتفاعها ، وهى تشغل وسط الجزيرة منحدرة فى شيء من الانتظام إلى الشمال الشرقى . ويفاجأ داخلها من ناحية الشمال بجبل شمر المسمى قديماً جبلى طيء : أجا وسلمى : وهما سلسلتان تبدآن قرب خيبر وتسيران متوازيتين تقريباً فى اتجاه شمالى شرقى مسيرة ٥٦٠ كيلو متراً وهما من الجبال الوعرة على ما فيهما من مراع ومزارع متفرقة أهمها حول حايل التى اتخذها آل الرشيد عاصمة لهم إلى أن أخرجهم منها الملك عبد العزيز آل سعود سنة ١٩٢١ .

فإذا اقتحم الأجنبى نحو نصف هضبة نجد اصطدم بسلسلة جبال أخرى أشد وعورة من جبل شمر هى سلسلة جبل طويق التى تبدأ شرقى مكة وتسير فى وسط الهضبة نحو الشمال الشرقى . وفى وديانها المحصنة تحصيناً طبيعياً نشأت الدرعية وتقع فى منخفض يطوقه جبل طويق وفروعه وليس لهذا المنخفض غير طريقين ضيقين لا يتسع الفرق منهما لأكثر من جمل واحد . ولما يغرب عن أذهاننا ما بذله إبراهيم باشا فى الاستيلاء عليها سنة ١٨١٨ م .

ولا يكاد الأجنبي يتخطى جبل طويق وبقية الهضبة حتى يواجهه الربع الخالي الذي يشغل مساحة كبيرة في الجنوب الشرقي من الجزيرة والذي ما يزال مجهولاً إلى اليوم على الرغم من تقدم وسائل الانتقال . وإذا كانت في عمر المخاطر بقية فقد ينظر من فوق الهضبة إلى مشرق الشمس فيرى صحراء أقل خطراً من الربع الخالي هي النفود الصغير أو الشرقي . وإليك ما كتبه عنها المرحوم أمين الريحاني وقد عبرها في ركاب الملك عبد العزيز آل سعود سنة ١٩٢٤ :

« النفود بين القصيم والكويت ووراءها الدهناء . وكلها على اتساعها أجف من الإسفنج في دكان عطار . النفود عدة جبال من الرمل تمتد طولا من الشمال إلى الجنوب وعرضاً من الغرب إلى الشرق وهي تدعى دعوصاً ، علو الدعص[1] يتراوح بين ٥٠٠ قدم ، ٧٠٠ قدم (١٥٣ متراً إلى ٢١٤ متراً) . وبين كل دعص وآخر أربعة أميال نزولا وصعوداً . أحد عشر دعص هي ، بل إحدى عشرة كربة كل واحدة أشد من الأخرى . إن أصعب السير على الركب والركائب هو السير في النفود ، ولا أثر البتة لطريق فيها ، ولا مهرب من أمواج رمالها : تصعد الذلول في الدعص إلى رأسه وهي ترغ[2] ، فتغوص حتى الرسغ ، فتجيء الخطوة الواحدة وفيها قد بذل جهد عشر خطوات ، فتئن الرحال من شدة الحال .

أما في النزول فتنتقم من الدعص الذلول : فتروح هاوية غاوية ، فتغوص في الرمل حتى الركاب . فتجيء الخطوة مقدار خمس خطوات ، وفيها للراكب خمس نكبات . النفود ــ ذلك البحر الرملي الذي تعالت أمواجه جبالا ،

(١) الدعص مايعبر عنه عادة بلفظ كثيب الذي يجمع على كثب وكثبان .
(٢) يغشى عليها .

وهبطت جباله أمواجاً ، فضاق فى اجتيازه حتى صدر الدليل . وما كنت أظن ونحن نخوض عبابه أن له نهاية تنتهى عندها الشدة والعذاب .

أما الدهناء فقليلة الكثب والتجوفات متنوعة المرعى غزيرة الأعشاب » وبعد ذلك يجد الأجنبى نفسه فى سهل ماؤه الجوفى قريب من سطح الأرض ومن أجل ذلك سمى الحسا . وكان قديماً جزءاً من السهل الفريني الذى كونه دجلة والفرات حين كانا منفصلين . أما القسم الشرقى من ذلك السهل الفريني القديم فهو اليوم خليج فارس . ولا يصعب قطع الحسا إلى ساحل خليج فارس .

أما إذا جاء الأجنبى من الشرق فعليه أن يخاطر بعبور البحر الأحمر ومن أسمائه القديمة خليج العرب وبحر فرعون — وهو بحر قليل المرافىء الطبيعية كثير الشعاب والجزيرات المرجانية . ويقص علينا سترابون من صعوبات الملاحة فى هذا البحر أن السفن التى كانت تمخره لم يكن لها بد من أن تقضى الليل راسية فى مأمن خوفاً من أن تحطمها الجزيرات المرجانية . وأنه لاتقاء هذه الأخطار كانت القاعدة أن تسير السفن فى هذا البحر نهاراً فقط . ويحدثنا أن أشد أجزاء هذا البحر خطرا الخروج من القلزم بسبب شدة الرياح وتغير اتجاهاتها .

ويأتى ابن جبير فيخوفنا أهوال السفر فى البحر الأحمر فيقول « أرانا بحر فرعون بعض أهواله الموصوفة . فمنها ما كان يطرأ من البحر واختلاف رياحه وكثرة شعابه المعترضة فيه ، ومنها ما كان يطرأ من ضعف عدة المركب واختلالها . وربما سنحت الجلبة (السفينة) بأسفلها على شعب من تلك الشعاب أثناء تخللها فنسمع لها هداً يؤذن باليأس . فكنا فيها نموت مراراً ونحيا مراراً . فسبحان مسخرها على تلك الحالة والمسلم فيها لا إله سواه » .

ويضيف ماينبغى أن يحرزه الملاح من المهارة فيقول : « وأبصرنا من صنعة هؤلاء الرؤساء والنواتية فى التصرف بالجلبة أثناء هذه الشعاب أمراً ضخماً : يدخلونها على مضايق ويصرفونها خلالها تصريف الفارس للجواد الرطب العنان ، السلس القياد ، ويأتون فى ذلك بعجب يضيق الوصف عنه » .

فإذا عبر البحر بسلام حاول النزول بالبر فلم يجد على الساحل ثغراً يستحق الذكر ، فضلا عن أن الصخور المرجانية الغاطسة والجزيرات التى تحاذيه فى أكثر أجزائه تجعل الملاحة خطرة ، لأن ينبع وجدة والحديدة والمخا وما إليها مما نسمية ثغوراً ليست إلا قرى ساحلية ليس لها أهمية ذاتية جغرافية ، وإنما تدين بشهرتها لمؤخرها . ومثال ذلك أن جدة لم يكن ليعرفها المسلمون جميعاً لولا أن فى مؤخرها مكة المكرمة وما يرتبط بها من فريضة الحج . وما تزال صعوبة النزول بهذا الساحل ماثلة إلى اليوم فيما يعانيه حجاج بيت الله الحرام كل سنة من وقوف السفن بعيدة عنه وانتقالهم إليه فى زوارق صغيرة .

فإذا نزل السائح فى الجزء الشمالى من الساحل الغربى فأمامه السهل الساحلى الضيق المسمى مدين وهو قاحل للغاية ، ويحسبنا دليلا على ذلك قصة موسى عليه السلام وبنات شعيب . ويصادفه بعد ذلك سلاسل جبال السراة المعروفة باسم جبال الحجاز والتى تمتد من الشام إلى اليمن موازية لساحل البحر الأحمر بوجه عام . ويناهز ارتفاع بعض قممها هنا ٢٠٠٠ متر .

وإلى الشرق من السراة نطاق صحراوى من نوع النفود يأنس فيه المسافر بما يرى من الماء والعشب فى بعض نواحيه ، وبما يسمع من الأهلين المتقفين من أن هذا العشب وذلك الماء هما اللذان أغريا العرب الأقدمين باتخاذ هذا

المطاق طريقاً لقوافلهم بين اليمن والشام . وها اللذان ما برحا يغريان الحجاج والتجار بسلوك هذا الطريق إلى اليوم . فإذا جاوز هذا النطاق الصحراوى الضيق نسبياً فى مسيره إلى الشرق فهناك هضبة نجد بسلاسل جبالها ثم النفود الصميرة ثم الدهناء ثم سهل الحسا إلى خليج العجم .

أما إذا اختار أن ينزل إلى البر فى الجزء الجنوبى من الساحل — فى الحديدة مثلا — فصعوبة الساحل كما وصفنا ، إلا أن السهل الساحلى هنا أرحب صدراً من سهل مدين ، وفيه أنهار صغيرة يصل بعضها إلى البحر ويقصر بعضها دون ذلك . ولكنها مع هذا وبانضمام بعض العيون والغدران إليها ، تروى أجزاء من هذا السهل تكفى لإنبات المراعى فى بعضه وزرع البعض الآخر . لكن المسافر لابد أن يشكو شدة الحر وركود الرياح ، وهما السببان اللذان دفعا العرب إلى تسمية ما يقع من هذا السهل فى الحجاز وعسير واليمن باسم تهامة ، لأن التَّهَم (بوزن تعب) هو عندهم شدة الحر مع ركود الريح .

ويسرع المسافر إلى التخلص من هذا الضيق فيعتلى جبل السراة كما اعتلاه شرقى مدين ، إلا أنه هنا يرتفع فى بعض قممه إلى ٣٠٥٠ متراً ويتسع كثيراً إلى الشرق ، ويجىء بعده الربع الخالى وحاله أشهر من أن تعرف .

والمحاباة الثالثة التى ادخرتها الطبيعة لأهل هذه البلاد ، أنها بعد كل ما يقال عن وعورة سواحلها ليست خالية من الثغور الصالحة ، بل إنك لتجد فى عمان مرفأ « مسقط » يفتح صدره للسفن المقبلة من جنوب فارس ومن الهند وما والاها شرقاً . وتجد إلى الشمال منها على ساحل الخليج الفارسى مرافىء أخرى اشتهرت منها فى العصور القديمة جرة .

فإذا نظرت إلى الجنوب الغربى فهناك ثغور جيدة أهمها عدن وتقع على خليج حسن تحيط به الجبال فتحمى السفن من العواصف . وقد بلغ من إحاطة الجبال بعدن أن الطريق منها إلى سائر اليمن منقور بعضه فى الجبل . ومن أجل ذلك كانت عدن مخزن السلع من قديم الزمان ولا عجب فهذا الثغر الصالح يواجه الساحل الشرقى من أفريقية ذلك الساحل الذى اتصل العرب به فى زمن مبكر وجلبوا منه الذهب والعاج والرقيق وبعض الأفاويه .

والمحاباة الرابعة أن جزيرة العرب ليست كلها صحراء قاحلة كما يتبادر إلى ذهن الأجنبى عنها . فإنك إذا استثنيت الربع الخالى وبادية السماوة والحماد ، وجدت صحاريها الأخرى يكسوها العشب فى الشتاء والربيع ويهرع السكان إليها بقطعانهم كما هو الشأن فى النفود الكبرى ، والحال أحسن من ذلك فى الدهناء كما لحت من وصف الريحانى لها .

وإذا انتقلت إلى الحجاز وجدت جزءاً لا يستهان به من نوع المراعى الجيدة . والشأن فى نجد خير من ذلك إذ لا يقل مقدار ما يصلح للرعى والزراعة عن نصف مساحته . وإلى الشرق من نجد توجد الحسا وهى كثيرة الماء والمرعى والزرع . وأفضل منها فى هذه الناحية عمان حيث تجرى النهيرات من الجبل الأخضر فيجود السهل الساحلى بالنبات والأشجار . فإذا نزلت وادى حضرموت فهو على مثل ذلك ، وإذا بلغت بلاد اليمن راعتك مزارعها وقاكهتها وأشجار بخورها وصموغها فنسيت أنك فى بلاد يزعم الأجانب أنها كلها صحراء .

الفصل الثانى

طرق القوافل فى جزيرة العرب

بعد الدراسة التمهيدية السابقة لم يعد من الصعب علينا أن نتعرف اتجاه الطرق كبيرها وصغيرها : ذلك بأن الصحارى المقفرة لا تستطيع القوافل اجتيازها ، فلا نتوقع وجود طرق تخترق الربع الخالى وبادية السماوة ، لأنه لا يوجد بهما ماء . ولم يرو لنا التاريخ أن أحداً اعتسفهما . وإذن ، فلا مناص من الاعتراف بأن طرق القوافل مقصورة على الأرض المزروعة والتى يوجد بها مراع وآبار وعيون ووديان ، بشرط أن تكون صلبة قدر الطاقة ، وخالية ما أمكن من الحزونة[1] والرمال الناعمة التى تغوص فيها قوائم الإبل . ومن هذا النوع الصالح النفود والدهناء فإنهما تسمحان للقوافل باجتيازها والتوغل فى وسط الجزيرة .

وبناء على هذا نجد أهم الطرق التجارية القديمة ما يأتى :

١ — الطريق من عمان إلى اليمن :

ويبدأ من مسقط ، وهى كما قلنا ثغر صالح مواجه لبلاد الهند تؤمه سلع الشرق بحراً تنقلها سفن ذلك العصر ، وكانت كثيراً ما تلتزم السواحل . ثم تسلمها إلى سفن الصحراء ، وهذه تتفادى الربع الخالى بالسير إلى الجنوب منه

(١) ارتفاع الأرض وصعوبة السير فيها ، والحزن عكس السهل

فتمر بشبوة فى حضرموت إلى المستودع العام لعرب الجنوب ، وهو بحسب العصور معين أو مأرب أو ظفار أو صنعاء .

٢ — الطريق من الجنوب إلى الشمال :

كان يبدأ من موزع ، وهى من أقدم الثغور اليمنية ، وكان موقعها على الساحل غير بعيد عن موقع المخا الحالية . أما الآن فإن الساحل قد بعد عنها كما بعد عن دمياط ورشيد وعن الفنار وتمثال ديليسبس فى بور سعيد ، وعن عبادان وأدريا التى يسمى البحر الإدرياتى باسمها ، وكانت تجارة شرق أفريقية ترد إلى موزع ، وتنقل منها على ظهور الجمال إلى المستودع العام ، وليكن مأرب مثلا .

ولما بعد الساحل عن موزع نافستها عدن منذ القرن الثانى الميلادى لحسن موقعها كما تقدم ولأنها أقرب إلى شرق افريقية ، وسرعان ماقفزت عدن فصارت الثغر الرئيسى فى الجنوب الغربى لجزيرة العرب . وبلغ من عظم شأنها أنها سميت فيما بعد « المخزن الرومانى » . ومن عدن كانت السلع تنقل إلى مأرب ومن ثم تسير شمالا فى جوف اليمن إلى معين ونجران ، ثم إلى تبالة فالطائف فمكة فيثرب فديدان « العلا » فالحجر (مدائن صالح) فواحة تيماء فبطرا مادام أمر تجارتها بيد الفينيقيين والنبط من بعدهم . فلما استولى الرومان على بطرا سنة ١٠٦ م تحولت طريق التجارة إلى معان وهى على طريق الحاج . وكانت قديما تسمى معان مصران بمعنى معان المصرية . ولا يزال قسمها الجنوبى يسمى معان المصرية إلى يومنا هذا وتسكنه أسر مصرية .

ومن بطرا أو معان تسير بعض القوافل إلى غزة ومصر ، ويستمر الجزء

الأعظم على الحجة إلى بصرى فدمشق فتدمر . ثم يحاذى الفرات دائراً معه إلى بابل أو الحيرة . وتؤيد أعمال الحفر الحديثة التى قام بها العلماء فى اليمن والحجاز أن هذا الشريان التجارى يطابق بوجه عام درب الحاج وليس فى هذا الكشف ما يستغرب ، لأن درب الحاج من وجهة النظر الجغرافية البحتة هو أقدم وأحسن الطرق لاختراق الجزيرة من الجنوب إلى الشمال .

ولما أراد الرومان غزو اليمن فى عهـــــد « اكتافيوس أغسطس » (٣٠ ق . م — ١٤ م) أرسلوا حملة حربية بقيـادة إلياس جالوس « Aelius Gsllus » عاملهم على مصر فى نحو سنة ٢٥ ق . م . فقام من القلزم ومعه نحو ١٠٫٠٠٠ رجل من الرومان وحلفائهم ومن بينهم ٥٠٠ يهودى و١٠٠٠ نبطى وكان مرشد الحملة سليئوس وزير الملك العربى لبلاد النبط وهو عباده[1] وسار الجيش بحراً حتى نزل بالحوراء بقصد السير إلى مأرب .

ولو اتبعت هذه الحملة طريق التجارة القديم الذى شرحناه والذى يسير فيه الحاج لكان من المرجح نجاح الحملة فى أغراضها . ولكن سليئوس ضلل الحملة بتسييرها فى أقاليم وعرة . فلم يعد منها إلا القليل . وجوزى سليئوس بالإعدام فى روما . ومن هذه الواقعة التاريخية ومثيلاتها تتضح أهمية الظروف الجغرافية فى تحديد الطرق الصالحة للسير وإلزام القوافل اتباعها وإلا خاطرت بحياتها .

٣ — الطريق من مأرب إلى جرة :

لم يرد عن هذا الطريق شىء فى الكتب القديمة إلا أن الوضع الجغرافى والتضاريس تحتم اتجاهها وسيرها بحيث لا تخرج عن نطاق معين : ذلك بأن

(١) وبعض المستشرقين يقرأ هذا الاسم «أب يدع »

الجزء الجنوبى من بلاد العرب يشغله الربع الخالى ولم يرو لنا التاريخ أن العرب اجتازوه بقوافلهم يوماً من الدهر .

وإذن فإن كل اتصـال بين جوف اليمن وخليج فارس عن طريق نجد لا بد أن يمر على الحافتين الغربية والشمالية لهذه الصحراء المهلـكة ، ومن حسن المصادفات أننا لا نزال نجد الأرض على هاتين الحافتين صخرية وخالية من الرمل الناعم ، إلى جانب كثرة الآبار والواحات من جوف اليمن إلى نجد بحيث يتيسر السير دون خوف من العطش والجوع .

فإذا خرجت القافلة من مأرب فلا مفر لها من السير على امتداد خط الواحات الموجود بوادى نجران فوادى السليِّل فوادى الدواسر . ثم على امتداد الآبار التى تكثر فى الوديان الجافة المنبثة فى الأفلاج والخرج والتى تنفذ بين سلاسل طويق بجنوب نجد ، وسرعان ما تجد القافلة نفسها فى أرض اليمامة القديمة وكانت فى العهود السابقة أكثر ماء ونباتاً . وعلى هذا الطريق يسير تجار اليمن ونجد إلى يومنا هذا وبخاصة تجار البن .

أما الجزء الأخير من الرحلة وهو الواقع بين اليمامة وجرة فهو أسهل من الأجزاء السابقة إذ ليس على قافلتنا إلا أن تعبر نطاقاً ضيقاً من النفود والدهناء فإذا بها قد نزلت بواحات الحسا ذات الحقول الغنية والماء الغزير ثم تتبع الطريق الذاهب مباشرة إلى الخليـج حيث كانت جرة وهو أيسر طريق وأقصره بين نجد وخليج فارس ، لأن الجزء الذى يقطعه من النفود والدهناء أضيق من أى نطاق آخر إلى الشمال منه أو إلى الجنوب منه ، ولأن دعوص النفود هنا أخفض من مثيلاتها وأسهل على الصاعدين .

ومما يدل على قدم هذا الطريق كثرة الآثار القديمة الموجودة على امتداده ، منها دوائر حجرية وبقايا قنوات قديمة للماء بنيت من الحجر . والراجح أن الفينيقيين هم الذين أنشئوا هذه الآثار بسبب توغلهم بالتجارة فى قلب الجزيرة كما يبرهن على ذلك مستعمراتهم على الخليج الفارسى تلك المستعمرات التى تتفق أسماؤها وأسماء مستعمراتهم على ساحل فينيقيا من البحر المتوسط .

والآن نتساءل عن موضع جرة وعن الجرهيين الذين كان كتاب القرن الثانى قبل الميلاد يوازنونهم بالسبئيين من حيث الثروة والنشاط التجارى ، ومن الواضح أنهم بلغوا قمة مجدهم فى ذلك العصر .

أما جرة فيرجح أنها أسست فى القرن الرابع قبل الميلاد . ومما ساعد على نموها استيلاء الفرس على بابل حتى ليقول مؤرخ معاصر للإسكندر المقدونى إن الذين أسسوها إنما هم الكلدانيون الذين نفاهم الفرس من بابل . وأيّاما كان الأمر فقد كان موقع جرة ممتازاً بمواجهته للهند وبوقوعه داخل خليج البحرين فى مأمن من الأمواج العظيمة ، وهو ممتاز كذلك بقربه من واحات الحسا التى تعد مفتاحاً لقلب الجزيرة . والمرجح أن موضع جرة كان قريباً من العقير .

ء — الطريق من جرة إلى بطرا :

كان هذا الطريق هاماً أيام الإسكندر المقدونى (٣٣٦ ق . م . — ٣٢٣ ق . م .) وبقى كذلك إلى عصر البطالمة الأول (٣٢٣ ق . م . — ١٤٥ ق . م .)

وكانت السلع الهندية المرسلة إلى مصر وسواحل البحر المتوسط تتبع هذا الطريق حين كان طرفه الشرقى ثغر جرة السالف الذكر . ومن جرة كانت بعض السلع ترسل فى قوارب صغيرة إلى رأس خليج فارس ثم تحمل على رواحل فى الفرات إلى قرب الدير الحالية ، ومن ثم ترسل إلى الشام بواعن طريق تدمر .

ولما كانت القوافل تختار الطرق الغنية بالماء والطعام والخالية من الحزونة ومن الرمل الناعم ، فإن الطريق من جرة غرباً لايمكن أن يتخذ إلا اتجاها واحدا هو اتجاه الحسا ثم يعبر الدهناء والنفود فى أضيق نطاق منهما إلى اليمامة : وهذا الجزء من الطريق ينطبق انطباقاً تاماً على الجزء الشمالى الشرقى من طريق القوافل بين مأرب وجرة .

ومن اليمامة لم يكن للطريق بد من السير فى وادى حنيفة الشهير حيث تقوم الرياض وحيث كانت تقوم الدرعية .

ويجرى فى هذا الوادى نهر الباطن شتاء فتنبت الفاكهة والقمح والشعير والذرة وهى خيرات تعرف القوافل كيف تستغلها .

ومن الرياض يسير الطريق حتى يدخل سدوس ومن سدوس يتجه شمالا ليستغل الواحات العديدة الموجودة بوديان طويق الجافة ومن ثم إلى وادى الرمة قرب موضع عنيزة و يقابلها بريدة ثم إلى الرس .

ومن هنا تقصد إلى جبل شمر الكثير العيون ومخاصة حول « حايل » . ومن شمر يسير الطريق على الحافة الجنوبية لصحراء النفود الكبير إلى أن يبلغ واحة تيماء حيث يتصل بالحجة الممتدة بين مأرب و بطرا .

٥ — الطريق بين العراق والشام :

لاشك أن الصحراء التى تفصل هذين القطرين كانت فى قديم الزمان تخترقها طرق عديدة . ويدل على ذلك كثرة الخرائب المنثورة على امتداد تلك الطرق وأهمها خرائب تدمر . وما يزال من السهل التعرف على هذه الطرق القديمة ، بل إن بعضها تستغلها السيارات فى الوقت الحاضر .

ومما يستحق الملاحظة فى هذه المناسبة موضع الجوف الحالية وهى التى كانت تسمى دومة الجندل إذ تقع فى الجزء الجنوبى من بادية الحماد ، وفى منتصف الطريق بين خليج فارس وفلسطين كأنما اختارتها الطبيعة لتكون ملتقى الطرق السائرة من رأس الخليج ومن بابل أو الحيرة فى الشرق إلى بطرا فى الغرب .

المنافسون للعرب :

كان العرب حريصين على احتكار المتاجر إلى حد أنهم أوهموا العالم القديم أن كل السلع التى يعرضونها عليه إنما هى من غلات بلادهم سواء فى ذلك البخور والمر والعطور والذهب والتوابل والصموغ والعاج ، وأنهم يقاسون فى الحصول عليها مشقات خارقة للعادة بسبب كثرة الوحوش والأفاعى فى المناطق التى تنبت هذه السلع فيها . ثم كشف الناس أن أكثر ما يعرضه العرب يأتى من بلاد الحبشة والصومال وساحل أفريقية الشرق ، وأن جزءا منها يأتى من الهند . وكان من نتائج هذا الكشف أن هب الإغريق والرومان لتحويل التجارة الشرقية عن طريق البر إلى طريق البحر — أما قبل ظهور

الإغريق والرومان فلم يكن الملاحون يخاطرون بسفنهم فى مياه المحيط الهندى لأنها كانت إذ ذاك مجهولة اللهم إلا فى للسافات القصيرة التى يحتمل فيها مساحلة السفن ، ومن هذا القبيل التجارة الساحلية بين الحبشة والصومال وشرق أفريقية من جانب واليمن من الجانب الآخر ، والتجارة الساحلية بين خليج فارس وبلاد الهند .

وبانتشار عادة التحنيط فى مصر منذ الأسرة السادسة اندفع المصريون إلى ركوب البحر حتى بلغوا باب المندب ، ولكنهم لم يجاوزوه إلا فى عصر البطالمة ثم فى العصر الرومانى . وقد أرسل الرومان حملة بحرية للقضاء على القرصنة فى البحر الأحمر وبخاصة فى عدن وذلك سنة ٥٣ ق . م . وانتهى الأمر بالقضاء على هـذا الثغر ثم نظم الرومان الضرائب الجمركية بحيث تكون فى جانب التجارة مع الهند رأساً وذلك بفرض جمرك ثقيل على السلع الواردة من الثغور العربية وعمل كل مافى الوسع لاحتكار التجارة الشرقية فى يد المستظلين بالعلم الرومانى

وفى غضون القرن الثانى الميلادى أعيد فتح القناة بين النيل والبحر الأحمر وأصبحت هذه القناة تعرف باسم خليج تراجان ، وحفرت الآبار على امتداد الطريق من قفط من جانب وميوس هرموس وبرنيقة من الجانب الآخر . وميوس هرموس (Myos Hormos) موضعها الآن رأس أبى شعر وبئر أبى شعر على ساحل البحر الأحمر إلى الشمال من القُصَيْر ، وفى نهاية الطريق من قنا إلى هذه البقعة وأما برنيقة Berenice فآثارها واضحة على ساحل البحر الأحمر قرب خليج فول .

وعرف الملاحون الروم كيف يستغلون الرياح الموسمية فى رحلاتهم البحرية

إلى الهند . وكانت النتيجة تحول التجارة عن طرق البر إلى طريق البحر فضعف شأن جرة ومأرب . وساعد ذلك على تصدع سد مأرب واستعان الروم فى هذه المنافسة بالحبشة واستعان العرب بالفرس وخف الفرس للتوغل فى بلاد العرب تجارياً وسياسياً فاستولوا على بابل والقطيف والحسا ، ثم حكموا اليمن .

وبقى التنافس بين الروم والحبشة من جانب وفارس واليمن من الجانب الآخر إلى أن ظهر شأن الإسلام حين أحرز العرب النصر النهائى وأصبحوا سادة الشرق الأدنى فى التجارة والسياسة ، واستردوا احتكار المتاجر المشرقية واحتفظوا به إلى أن ظهر البرتغال فى مياه الهند فى سنة ١٤٩٨ فتغيرت الأوضاع وبقيت التجارة إلى اليوم فى يد الأوربيين . وعسى أن يعود للعرب شأنهم الأول فى التجارة والسياسة .

الفصل الثالث

الظروف التى ساعدت العرب فى فتح العراق وفارس

تقدم أن جزيرة العرب من الناحية الجغرافية تشمل كل ما يلى الفرات الأدنى غرباً ، ومعنى هذا أنه لا يوجد فاصل طبيعى بين الإحساء ونجد والحجاز من جانب وبين العراق من الجانب الآخر . وأحدث ما شهدنا من عدم قيام حاجز بين هاتين الجهتين ما تعانيه الدول العربية اليوم فى تعيين الحدود بين المملكة العربية السعودية والكويت والعراق ، وبين المملكة العربية السعودية ومملكة شرق الأردن .

وحدث فى مارس سنة ١٩٤٨ أن شركة انجليزية كشفت عن آبار بترول ، وأنها توقفت عن العمل حتى يقرر العرب فيما بينهم ما إذا كانت الآبار الجديدة تقع فى حدود المملكة العربية السعودية أو فى حدود الكويت أو فى حدود العراق . ذلك أن الطبيعة إذ ضنت بحاجز من عملها لم يبق إلا الاعتماد على الخبراء بهذه النواحى وبأماكن الماء فيها وبالقبائل الضاربة بها .

وانعدام الحواجز واختلاط القبائل هو الذى سبب قيام النزاع بين البدو الخاضعين لأبى بكر بزعامة المثنى بن حارثة الشيبانى وبين البدو الخاضعين للأكاسرة . وبنشوب الخلاف بين هذه القبائل المختلفة التبعية انتهز أبو بكر الفرصة لغزو العراق للأسباب الجغرافية والاجتماعية التى سيأتى شرحها ، ولأن

دولة الفرس يومذاك كانت تعانى اضطرابات كثيرة يكفى للدلالة عليها أن شيرويه بن كسرى الثانى قتل أباه وقتل ١٨ من إخوته ، وأنه لم يبق على العرش بعد ذلك إلا أشهراً ، وأنه فى مدى أربع سنين جلس على عرش الأكاسرة تسعة كانوا يتنازعون ، بالسيف والخنجر والدسائس ، بقية دولة منهوكة القوى مما أشاع الفوضى فى إدارة بلاد فارس .

والعوامل الجغرافية فى فتح العراق كثيرة نكتفى منها بأن العرب حين شرعوا فى فتحه لم يخرجوا عن بيئتهم الطبيعية ، بل وجدوا أنفسهم فى بلاد صحراوية ، لا نقول تشبه بلادهم فحسب ، بل هى جزء متمم لها . ثم وجدوا أنفسهم بين أناس يشاطرونهم الجنس واللغة والتقاليد والعادات ، وقد أصبحوا — منذ شتت الفرس دولة المناذرة — يحقدون على الأكاسرة أنهم حكموا فى رقابهم ولاة من الفرس يجهلون لغتهم وتقاليدهم . وزاد هذا الحقد ما حدث يوم ذى قار سنة ٦١٣ م أى بعد أن أوحى إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بنحو عامين .

وقد استغل قواد العرب هذه الظروف الجغرافية فكانوا يعتصمون بالصحراء ويفتحون القرى التى على حافتها مسندين ظهرهم إلى الصحراء دائماً حتى إذا حزبهم الأمر رجعوا إلى المدينة وجعلوا بينهم وبين عدوهم تلك الفيافى التى يضل فيها غير العرب .

وكان أهم غرض من حروب خالد بن الوليد فى العراق امتلاك الحيرة ، وأول من أقام بهذا المكان أناس يسمون العباد انضم اليهم — على أثر تصدع بعض سدود اليمن — جماعة من قبيلة تنوخ واشترك هؤلاء وأولئك فى بناء

معقل اتخذوه معسكراً — والمعقل والمعسكر حوله الخنـدق يسمى بالسريانية « حرتا » — وبنى العباد حول الحصن فنشأت الحيرة على شـاطىء الفرات إذ ذاك ، بل كانت تتخللها فروع منه، أهمها فرع يخرج من الفرات فى قنـاة محفورة فى الصخر حفرها الإنسان فى زمن غير معروف . وكان هذا الفرع يغذى بحر النجف ويدور فى قوس طويلة حتى يعود إلى الفرات عند القرنة ، وهى ملتقاه مع دجلة . وكان يوجد غربيها فرع آخر يسمى خندق سابور حفر لصد غارات البدو . وكان هذا الخندق ينتهى امتداده قرب الأبلة ، وهو اليوم خندق جاف ، أما أيام الفتح العربى فـكان غديراً . وكانت تحيط بالحـيرة المزارع النضرة والبساتين المثمرة ممتدة إلى أرض النجف .

وكان الجزء المهم من الحيرة على الشـاطىء الغربى من نهر الفرات فى حدود البادية على ثلاثة أميال جنوبى الموضع الذى بنيت فيه الـكوفة فيما بعد ، وآثار الحيرة الآن ترى إلى الجنوب الشرق من مشهد على بالنجف . وبهذا كانت الحيرة أيام ازدهارها بمثابة ثغر على هامش الصحراء تؤمها القوافل من الإحساء ونجد واليمن والحجاز والشام وفارس . ولعظم أهميتها فى توطيد سلطان العرب بتلك الناحية ، مع إمكان التقهقر منها دون خسارة ــ أقام بها خالد سنة بعد فتحها كى يطمئن على استتباب سلطان المسـلمين فى كل مايلى الفرات الأدنى إلى الغرب .

ومن مميزات موقف العرب فى فتح العراق — وفى فتح الشام كذلك — أنهم كانوا أحراراً فى توجيه الضربات إلى الفرس — أو إلى الروم — وفى نقل جنودهم بين الشام والعراق ، فى حين كان الفرس والروم لا يدرون أين

ومتى توجه إليهم هذه الضربات . ثم هم عاجزون عن تعقب العرب فى هذا الموقع المتوسط بحكم أنه صحراء لا علم لهم بمسالكها وأمواهها ، ولا طاقة لهم بالتوغل فيها بجيوش كبيرة .

وهذا يشبه من بعض الوجوه موقف ألمانيا فى الحربين العالميتين اللتين قامت أولاهما سنة ١٩١٤ وقامت ثانيتهما سنة ١٩٣٩ إذ كانت ألمانيا بفضل موقعها الداخلى بين أعدائها من الشرق والغرب تستطيع اختيار نقط الهجوم ، وتنقل جيوشها بين الجهتين الغربية والشرقية دون أن يعلم أعداؤها شيئاً يذكر عن وقت الهجوم أو مكانه ، وعن الطرق التى تسلكها جنودها فى الانتقال من جهة إلى أخرى .

فلما استقر الأمر للعرب فى الحيرة نظروا إلى الشمال فوجدوا البادية قد لطف مناخها واكتست فى الربيع بالنبات والأزهار فتقدموا يفتحونها حتى بلغوا الفرات . فلما خرج خالد إلى الشام واتفق الفرس مؤقتا على تمليك « بوران » ساقت على العرب جيشين فاضطر المثنى بن حارثة الشيبانى أن يخلى الحيرة . وقبل أن يفارق الحياة نصح لخلفه على جيش العراق وهو سعد بن مالك المشهور بسعد بن أبى وقاص ألا يقاتل الفرس إذا استجمع أمرهم فى عقر دارهم بل يقاتلهم على حدود أرضهم ، على أدنى حجر من أرض العرب ؛ فإن انتصر لم يصعب عليه التقدم ، وإن كانت الأخرى بقى على اتصال بجزيرة العرب ، وكان أعلم بسبيل بلاده .

ووافق هذا رأى عمر فكتب إلى جيوشه : « اخرجوا من بين ظهرى الأعاجم ، وتفرقوا فى المياه التى تلى الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم » .

فانتشر الجنــد على حافة الصحراء من ذي قار جنوبا ؛ فـكانوا مسالح ينظر بعضها إلى بعض ، ويغيث بعضها بعضا . وكان ذلك في ذي القـــعدة سنة ١٣ هجرية .

ثم حضر سعد إلى القادسية ، وكانت يومذاك يحف بها من ناحية الشرق خور من الفرات ، ويطوف بها من ناحية الغرب خندق سابور وهو إذ ذاك غدير . وكان يحمى ميمنة المسلمين مستنقع لا يمـكن اجتيازه بجيش كبير كجيش الفرس ، بينما كانت الصحراء تحمى ظهرهم .

والقادسية من أبواب فارس وهو منزل رغيب خصيب رحيب يكون فيه العرب على حافات الحجر وحافات المدر . وبفضل هذا الموقع انتصر العرب في القادسية انتصاراً مكن لهم من اجتياز الفرات والتغلغل إلى دجـلة . واكتفى الفرس مؤقتـاً بالخروج من القسم الغربي من المدائن ، والانتقال إلى جزئها الشرقي متخذين من دجلة فاصلا بينهم وبين أعدائهم . وعبر سعد عن ذلك بقوله : « إن عدوكم قد اعتصم منـكم بهذا البحر ، فـلا تخلصون إليه معه ، ويخلصون إليـكم إذا شـاءوا في سفنهم وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه . ألا إني قد عزمت على قطع هـذا البحر إليهم » . فعبر العرب دجلة ، واستولوا على بقية المدن ، وبسطوا نفوذهم على السهل الواقع إلى الشرق من دجلة حتى بلغو سفوح الجبال التي تفصل سهل العراق عن هضبة إيران .

ولهذه الجبال أسماء كثيرة منها جبال زاجروس وجبال خوزستان وجبال فارس وجبال حمرين . وببلوغ هذه السفوح اعتقد عمر أنها فاصل طبيعي يصح للمسلمين الوقوف عنده ، علماً منه بأن الفرس سيدافعون عن بلادهم الأصلية

دفاع المستميت باعتبار كونها عقر دارهم ومنبت دولتهم وموطن آثارهم . ولأن العرب لم يألفوا حرب الجبال بعد . وعبر عمر عن هذا الرأى بقوله : « وددت لو أن بيننا وبين العجم سداً ، لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم . حسبنا من الريف السواد . إنى آثرت سلامة المسلمين على الأنفال والغنائم » .

هذا ما رغب فيه عمر واعتزمه ، ولكن العوامل الجغرافية أقوى من عمر إرادة ، وأبعد من عزمه أثراً : ذلك بأن الفرس — منذ انسحبوا داخل هضبتهم — أدركوا انعكاس الوضع الجغرافى بينهم وبين العرب إذ هيأت لهم الطبيعة طرقاً ينحدرون فيها من جبالهم إلى السهل : تلك الطرق هى وديان الأنهار الكثيرة التى تنبع من جبال خوزستان وتصب فى دجلة وشط العرب وخليج فارس . وأهم هذه الأنهار نهر زاب الأعلى ونهر زاب الأسفل ونهر ديالة ونهر قارون الذى كان العرب يسمونه دجيلا ومعنى هذا أن الفرس أصبحوا يستطيعون أن ينقضوا من جبالهم فى أى هذه الوديان شاءوا ، دون أن يكون فى طاقة العرب التكهن بمعرفة مكان الهجوم أو زمانه .

ولما كان وادى ديالة هو الجادة الكبرى إلى الهضبة رابط الفرس فيه عند حصن منيع هو جلولاء ، التى تسمى اليوم قزلرباط على طريق القوافل بين العراق وكرمنشاة التى حلت محل حلوان بعد ضعفها . وجلولاء ، بفضل هذا الموقع أقوى أبواب إيران من الوجهة الاستراتيجية (وهى الآن على الحدود بين إيران والعراق) . ومن أجل هـــذا حشد الفرس فيها جيوشهم وجعلوا ينقضون على العرب حتى أدرك هؤلاء أن الاحتفاظ بالسهل يقتضيهم انتزاع جلولاء من أعدائهم . بذلك قضت تضاريس الأرض وجاء

قضاؤها فوق قضاء عمر ومعقباً عليه . واضطر العرب أن يحاصروا جلولاء حتى استولوا عليها .

فوقف لهم الفرس مرة أخرى فى قلب الجبال وأشدها وعورة فى موقع منيع هو : نهاوند . ولا تعجب أن يسمى العرب انتصارهم فى نهاوند فتح الفتوح إذ أن توغلهم بعد ذلك فى بلاد الفرس كان سهلا نسبيا — مع بقائه خاضعاً للعوامل الجغرافية .

وبيان ذلك أن الجزء الأكبر من وسط هضبة إيران صحارى ملحة لا يسهل السير فيها بجيوش كبيرة . وأهم هذه الصحراء دشت اللوت ودشت الكافر إلا أنه يوجد بين دشت الكافر وجبال البرز المغطاة بالغابات نطاق من نوع المراعى الباردة — الإستبس — تتخلله على مسافات مناسبة واحات غنية تسقيها عيون من الماء العذب الغزير . وفى هذا النطاق يمتد الطريق الجيد الوحيد بين شرق آسيا وغربها . وعلى هذا الطريق سارت الجيوش العربية حتى نهر جيحون فعبرته واستولت على بخارى وسمرقند وتابعت سيرها إلى حدود الصين .

أما الجزء الشمالى من تركستان فإن برده القارس حال دون توغل العرب فيه، إذ أن البرد القارس أشد أعدائهم . ووقوف البرد الشديد فى وجه الفتوح العربية على هذه الصورة مما يبرهن على رسوخ العوامل الجغرافية وعلى مبلغ أثرها فى توجيه التاريخ . ومثل ذلك ما ينقل عن نابليون أنه قال : « إن برد روسيا وحر سوريا هما العدوان اللذان عجزت عن قهرهما » . والقول الآخر بأنه

الروس لم يهزموا نابليون فى عامى ١٨١٢ — ١٨١٣ وإنما هزمه القائد « يناير » .
ومن باب أولى لم يستطع العرب التوغل فى هضبة تبت التى تكسوها الثلوج أكثر أيام السنة ، ولا فى جبال هملايا .

وما قيل عن انقضاض الفرس على العرب بطريق وادى ديالة ينطبق بوجه عام على وادى نهر قارون . ولذلك تحصن الهرمزان بالجبال وجعل ينقض بين حين وآخر على ناحية الأبلة حتى لم يبق مناص — لأجل الاحتفاظ بالسواد — من أن يترك عمر رأيه وينصاع لأمر الطبيعة فيأذن لعتبة بن غزوان ـ عامله على الأبلة ـ أن يغزو الأهواز كى يتم بالاستيلاء عليها فتح فارس .

وبعد أن استقر العرب فى إيران أقام جماعة منهم بالمدائن ، فلما عادت وفودهم إلى المدينة انزعج عمر حين شاهد شحوب ألوانهم وضعف أجسامهم فسأل عن السبب فأجابوه بأن هواء المدائن لا يوافق أمزجتهم فأمرهم باختيار مكان تصلح فيه الإبل . وشرط عليهم أن يكون المكان المختار ماء صالح وأن يكون بحيث يمكن إنجاده من المدينة أو التقهقر منه إليها إذا حزب الأمر ، وعلى هذا الأساس اختير موضع البصرة وكان مما لوحظ فى اختياره مواجهة وادى قارون وهو طريق هجوم الفرس فى الجنوب ، وموضع الكوفة وكان مما لوحظ فيه مواجهته لوادى ديالة وهو طريق هجوم الفرس فى الشمال . ومثل ذلك يقال عن اختيار موضع الفسطاط وكلها ينطبق عليها ، إلى جانب الشروط الأخرى قول عمر : « لا تجعلوا بينى وبينكم ماء ، متى شئت أن آتيكم ركبت ناقتى فأتيتكم » . أما فى الشام فلم تدع الحاجة لإنشاء عاصمة جديدة لأن شروط عمر متوافرة فى موقع دمشق .

الفصل الرابع

الظروف التي ساعدت العرب في فتح الشام

تحد الشام شمالا بجبال طوروس التي تفصلها عن الأناضول ، وتحد شرقاً بادية الشام ، ويحدها في الجنوب الشرقي الصحراء والبحر المتوسط بحيث يتعين على الشام أن تكون الطريق الذي يمكن اجتيازه بجيش كبير يمر بين غرب آسيا من ناحية ، وشمال أفريقية الشرقي وأوربا من الناحية الأخرى . ومن أجل هذا كانت الشام في أكثر العصور جزءا من إحدى الدول العظيمة التي ظهرت في إحدى هاتين الناحيتين . فكانت طوراً ضمن الامبراطورية المصرية ، وطوراً تابعة لدولة آشور أو الفرس ، وآونة هي داخل الحدود الرومانية ثم الرومية . وكذلك كان دخولها ضمن الدول الإسلامية . سواء أكانت عاصمة تلك الدول المدينة أو دمشق أو بغداد أو القاهرة أو القسطنطينية .

وساحل الشام رملي منخفض في بعض أجزائه ، إلا أن أكثره مرتفع وعر المنحدر ، وإن كان قليل الخلجان قليل الثغور الصالحة للملاحة ، وأكثر أجزائه ارتفاعاً جبل الكرمل وهو بروز إلى البحر قرب خليج عكا .

وإذا كان العراق متصلاً بجزيرة العرب من حيث التضاريس ، فإن الشام أوثق بها اتصالا : ذلك بأن قسمها الشرقي وهو بادية الشام ليس إلا امتدادا للنفود ، وسلسلة جبالها الشرقية امتداد لسلسلة الجبال التي تسمى

الحجاز والسراة ويسمى قسمها المتصل بالشام الشَّراة . ويسمى الجزء المتمم لهذه السلسلة والواقع فى شمال الشام الجبل الشرقى .

فإذا انتقلنا غربى هذه الجبال وجدنا المنخفض الذى يشمل وادى عَرَبَة والبحر الميت ونهر الأردن ووادى البقاع . وهذا المنخفض بكل أجزائه جزء من الأخدود الشرقى شأنه فى ذلك شأن البحر الأحمر .

ويقع إلى الغرب من هـذا المنخفض سلسلة من الجبال هى تكملة جبال سيناء (وسيناء فى نظر الهمدانى ومن تابعه جزء من جزيرة العرب) ويعرف القسم الشمالى من هذه السلسلة باسم جبال لبنان .

وليس بالشام جبل مهم بعد ذلك إلا جبل الشيخ الذى كان الأقدمون يسمونه جبل حرمون وهو إلى الشمال الغربى من دمشق ، ويرى من كل جهات الشام . ولذلك كان علماً تهتدى به القوافل .

ومن هذا الوصف يتضح أن الشام يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام :

١ — القسم الشرقى وهو هضبة قاحلة تتخللها واحات .

٢ — القسم الغربى وهو سهل ساحلى خصيب بوجه عام ضيق فى بعض أجزائه وفيه ازدهرت حضارة الفينيقيين .

٣ — القسم الأوسط والواقع بين هذين القسمين ويشمل سلسلة الجبال الشرقية وسلسلة الجبال الغربية كما يشمل المنخفض الواقع بينهما بما فى ذلك وادى البقاع ، وأهم أنهار الشام الفرات ونهر العاصى الذى كان قديماً يسمى الأورنط ، ونهر الأردن ويسمى الغور ومن نهيراته المهمة اليرموك .

ومن العوامل الجغرافية التى استغلها العرب فى فتح الشام ما يأتى :

أولا : أنهم وجدوا أنفسهم بالشام — أول الأمر — فى مثل الظروف الجغرافية التى ألفوها من حيث التضاريس وبخاصة فى القسمين الشرقى والأوسط باعتبار كونهما امتداداً لصحرائهم وحجازهم .

ثانياً : أن رحلة الصيف علمتهم بطرق الشام وأسواقها حتى لم يعد يخفى على تجارهم شيء منها ، بينما الأدلاء منهم يعرفون من تضاريسها كل ما يحتاج إليه قواد جيوشهم .

ثالثاً — أن العرب المسلمين وجدوا بالشام أناساً من العرب سبق لهم أن تغلغلوا فى هذا القطر من قبل الإسلام بأكثر من ألف عام حتى استقر بعضهم على تخومها الشمالية .

ومن نافلة القول أن نؤكد أن عرب الحجاز وعرب الشام كانوا يحسون اشتراكهم فى الجنس واللغة والتقاليد ومن ذلك أن حسان بن ثابت كان شاعر أمراء غسان قبل أن يكون شاعر محمد عليه الصلاة والسلام .

رابعاً : أن الموقع الداخلى لباديتى الشام والعراق كفل لهم الانتفاع بهذا الموقع كما شرحناه فى فتح العراق .

وأدرك أبو بكر وأصحابه هذه المزايا فبعث إلى الشام بعدد من الجيوش يقصد أحدها التوغل فى جنوب فلسطين ويتجه الثانى إلى وسط الشام من ناحية البلقاء — وهى الآن جزء من مملكة شرق الأردن — ويتجه الثالث إلى شمال الشام من ناحية دمشق وحمص .

وتتجلى مزية الموقع الداخلى فى انتقال خالد بن الوليد بنصف جيش العراق إلى الشام ، ثم رجوع بقية هذا الجيش إلى العراق فى الوقت المناسب للعرب

إذ كانت معركة القادسية دائرة الرحى . وقد اختلف المؤرخون فى الطريق الذى سلكه خالد فقال جماعة إنه بدأ من عين التمر وسار فى اتجاه شمالى غربى انتهى به إلى تدمر . وقال فريق آخر إنه سار من عين التمر إلى دومة الجندل ومنها سلك طريقاً إلى تدمر . والذى يهمنا من ذكر هذا الخلاف فى هذه المناسبة اتساع المنطقة التى كان العرب أحراراً فى التنقل فيها وامتدادها من قرب أرض صفين إلى دومة الجندل وما يليها جنوباً دون أن يكون لخصومهم أدنى رقابة عليهم .

خامساً : اجتماع العرب فى أذرعات استعدادا لموقعة اليرموك يشبه اجتماعهم فى القادسية لأنهم فى الحالين كانوا على حافة الصحراء ومسندين ظهرهم إليها . وكان فى طاقتهم عند الضرورة التقهقر إلى المدينة من غير أن يتمكن الروم أو الفرس من تعقبهم إلى مدى بعيد .

سادساً : جمع الروم الجيوش لمقاتلة العرب وأصبح من الواضح أن كل جيش رومى يستطيع أن يقضى على الجيش العربى الذى بإزائه . وفطن العرب لخطر التفرق واستقر رأيهم على الاجتماع فى أذرعات ، وتسمى درعا فى الوقت الحاضر وهى قرب منابع اليرموك . واليرموك نهر صغير ينبع من مرتفعات حوران وينساب فى خانق ضيق متعرج محفور فى هضبة من الحجر الجيرى ومغطاة بطبقة من البازلت ، ويتصل بالأردن على بعد ستة كيلو مترات ونصف جنوبى بحيرة طبرية وقبل ملتقاه بالأردن بنحو ٣٢ كيلو متراً يدور اليرموك على شكل نصف دائرة تقريباً . بحيث يحتضن جنوبى القوس سهلا له باب واحد من الجنوب بينما بقية مدخله مغلق بخندق طبيعى .

وأخطأ الروم فعسكروا إلى الشمال من نهر اليرموك وفطن العرب إلى خطأ عدوهم فرصدوا لهم جماعة كثيفة في باب السهل الذى يغلق الخندق بقيته . ودار جمهور الجيش من وراء الروم وما زال بهم حتى أحاط بهم بحيث لا يستطيعون التقهقر إلى الشمال . فلم يبق أمام الروم ، وقد ساقهم العرب من خلفهم إلا أن يتجهوا إلى الجنوب حيث اليرموك — وهو خانق عميق كما قدمنا — وحيث الخندق — حتى إذا انحصروا بين هذين ، حاولت خيلهم الإفلات من الباب . ونصح الزعماء لجنودهم بأن يفسحوا لها مجال الفرار فتفرقت في البادية .

وإذ ذاك انقض العرب على رجالة الروم فهوى أكثرهم في خانق اليرموك واندقت أعناق الآخرين في الخندق . والظاهر أن الهلاك أدرك أكثرهم عند منحنى النهر القريب من الواقوصة . ولذا تسمى معركة اليرموك أحياناً معركة الواقوصة . والاسم الحالى لهذا المكان الياقوصة .

وكان هذا الانتصار الحاسم سنة ١٥ هـ — ٦٣٦ م لم يستطع الروم بعده أن يقاوموا مقاومة حربية تذكر . فنال المسلمون الشام وودعها هرقل بقوله : « وداعاً يا سورية ، أيها القطر الجميل ، وداعاً لا لقاء بعده ، فأنت اليوم بلاد الأعداء » .

وبلغ العرب السفوح الجنوبية الشرقية من جبال طوروس ، فوجدوها أشد بأساً من جنود الروم بسبب وعورتها وبردها القارس . وبسبب هذين الدرعين وعورة طوروس وبرد آسيا الصغرى وقف الفتح العربي في هذه الناحية لأن البرد — كما تقدم — عدو لا يقهره العرب . وبقى الأمر كذلك حتى جاء

السلاجقة ومقرهم الأصلى إلى شمال شرق نهر سيحون وهى البلاد الباردة التى وقفت عندها الفتوح العربية فى الشمال الشرقى . وبفضل تعود السلاجقة هذا المناخ البارد تهيأ لهم فتح هذا القطر فى عهد زعيمهم العظيم ملكشاه (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ — ١٠٧٢ — ١٠٩٢ م) وامتدت دولة سلاجقة الروم إلى سنة ١٣٠٠ م وخلفها فى هذا القطر الدولة العثمانية . وهو اليوم الوطن الذى لا يعرف الترك العثمانيون وطناً سواه حفظه الله عليهم إلى يوم الدين .

الفصل الخامس

وادى النيل

كان النيل فى العصور الجيولوجية مقتصراً على ما نسميه اليوم نهر عطبرة والنيل النوبى ونيل مصر . أما ما نسميه فى عصرنا هـذا المنابع الاستوائية ومجموعة بحر الغزال فكانت مياهها تنصرف ناحية الغرب ، بينما كان النيل الأزرق وما يرتبط به ينصرف ماؤه إلى البحر الأحمر أو ما يواليه .

فلما كان العصر الجيولوجى الثالث حدثت تغيرات مهمة فى هذه الناحية من العالم ، كانت نتيجتها أن ارتفعت الأرض الواقعة إلى الشمال والشرق من نهر الكونغو ، بحيث تغير خط تقسيم المياه إلى درجة وجهت ماء المنبع الاستوائى وماء بحر الغزال وما يتصل به من ناحية النيل النوبى . وارتفعت الحافتان الجنوبية والشرقية مما نسميه هضبة الحبشة فتحولت مياه هذه الهضبة إلى النيل النوبى كذلك .

وكان هذا النهر بأصوله الثلاثة يصب فى خليج رأسه عند أدفو ويشمل ما نسميه وادى النيل من تلك البقعة إلى قرب موقع القاهرة ثم ينفرج الخليج حتى يشمل الوجه البحرى كله . وكان يحد هذا الخليج من الشرق تلال صحراء العرب . . . ممتدة من المقطم إلى جبل جنيفة ، ويحده من الغرب تلال صحراء ليبيا . ومن هذه التلال انفصلت القطعة التى عرفت باسم بوقير ، وفى ذلك

المصر كان خليج السويس يمتد إلى البحر المتوسط بحيث يصل بينه وبين البحر الأحمر على شكل مضيق .

وبقى النيل يلقى رواسبه فى قاع الخليج مدة طويلة حتى امتدت الرواسب إلى رأس بوقير وسواحل الشام . ومن هذه الرواسب تكون الوادى من إدفو شمالاً وتشكلت الدلتا إجمالاً وذلك قبل ظهور الجنس المصرى .

وكان المناخ مختلف كثيراً عما هو عليه الآن ، إذ كان المطر من الغزارة أكثر مما يشاهد فى الإقليم الاستوائى كما تدل على ذلك الوديان الكثيرة التى كانت تجرى من جبال صحراء العرب إلى النيل ، والتى ما نزال نرى مجاريها التى لا تحصى . وكان النيل واسعاً ضحلا ، فكان عند موقع القاهرة نحو خمسة عشر كيلو متراً ، كما تدل على ذلك آثاره فى جبل المقطم ، وفى هضبة الأهرام الكبرى .

ولما كانت مصر أشبه بإقليم خط الاستواء من حيث المناخ والنبات والحيوان ، لم يكن للنيل قيمته الحالية فى الرى ، وكان واديه على الأكثر فى شكل بحيرات تسبح فيها التماسيح وأفراس الماء ، ومستنقعات تكثر بها أنواع الطير وما تزال بركة قارون ومستنقعات وادى النطرون تشهدان بما كانت عليه تلك البرك والمستنقعات من السعة . وكانت تحيط بهذه البرك والمستنقعات غابات استوائية تجول فيها الحيوانات الاستوائية آكلة العشب وآكلة اللحوم على نحو ما يرى الآن فى الإقليم الاستوائى .

هكذا كانت مصر حين تفتحت عليها عين الإنسان لأول مرة .. وكان

الجليد الذى يغطى القطب الشمالى الآن ينزل من حين إلى حين حتى يبلغ البحر المتوسط فى بعض الأحيان . وبسبب هذه الزحوف الجليدية تأخر رقى الإنسان فى قارة أوروبا . ومن حسن حظ مصر أن البحر المتوسط حماها من هذه الغارات الجليدية فلم تعرقل رقيها ، وبقيت تتمتع بأمان تام من البرد القارس الذى يعوق الرقى البشرى . وفى ذلك العصر كان آباؤنا يهيمون على المضبات المحيطة بالوادى يعيشون على الصيد ويدونون ما يهمهم على صفحات صخورها مما لا تزال آثاره واضحة المعالم .

فلما تكون الوادى والدلتا انتقل إليهما بعض هؤلاء الصيادين فوجدوا حيوانات أكثر تنوعا وأعظم إمتاعا وأعود عليهم بالفائدة . ولم يكن أحدَ على وجه الأرض قد زرع إلى ذلك الحين حبة واحدة من القمح أو أى مادة غذائية أخرى .

وبمضى الزمن بدأ الصيادون يستلذون الخضر فشرعوا يزرعون بقاعا خالية على حافات الوادى . . وبتحسن الزراعة ظهر القمح المستنبت والذرة ونبات آخر غير معروف الآن كان يسمى « الآما » . وبقى السكان مقسمين بين الوادى والهضبة إلى أن قل المطر فأصبحت المضبة صحراء قاحلة فاضطر جمهورهم إلى الإقامة فى الوادى ، وكان مستواه إذ ذاك أخفض من مستوى سطحه الحالى بنحو عشرة أمتار . وعندما ارتفع المستوى القديم بنحو متر ونصف متر كانوا قد أحسنوا الزراعة واستأنسوا الوعل والثور . وبهذين الموردين : الحبوب والحيوان المستأنس انتقل آباؤنا من البداوة إلى الإقامة والاستقرار لحرث الأرض وتربية الماشية .

ولما صار النيل وحده واسطة الرى كان أكثر ما نسميه مصر اليوم قد تحول من خليج إلى قالب من التربة الخصبة كونه النيل فى صبر وأناة ، ثم تعهده بالزيادة عاماً بعد عام . وقد أدرك آباؤنا الأقدمون هذه الحقيقة وعبروا عنها بما كانوا يكتبون على شواهد قبورهم من نحو العبارة الآتية : « الأشياء التى خلقتها السماء أو أعطتها الأرض — كل هذه الأشياء أتى بها النيل من منابعه المجهولة » . وهذه الكتابات التى أوحت إلى هكاتيه الجغرافى اليونانى بالمعنى الذى صاغه هيرودوت فيما بعد بقوله : « إن مصر هبة النيل » .وهو تعبير غير مبالغ فيه عن الحقيقة الجغرافية التى لولاها لكانت مصر خليجاً يشق هضبة أفريقية . وإذن فشمال الوادى مدين بوجوده وخصوبته للجنوب ، ولا غرابة إذا اعتقد آباؤنا أن آلهتهم جاءوا من الجنوب ، ولا عجب إذا قدسوا النيل ، ولا بدع إذا احتفلنا بوفائه كل عام .

وكان من آثار الفيضان اضطرار السكان إلى إقامة قراهم على مرتفعات من الأرض لا يبلغها الماء ، وإنشاء هذه المرتفعات ليس يستطيعه الفرد ، بل لا بد فيه من تعاون كثيرين . ومثل ذلك يقال فى الجسور التى تصل بين تلك القرى وتقسم الأرض حياضاً . ومن ثم لم يكن بد من ارتباط الناس دفعاً لخطر الفيضان واستغلالا له ، بجر الماء إلى الأرض البعيدة عن مجرى النيل . وهذا التعاون أدى إلى الاتحاد فالقوة فازدهار الحضارة فى بلادنا قبل غيرها . وبحسبنا أن نذكر من أسباب ذلك اضطرار السكان إلى تعرف عدد أيام الفيضان وأيام التحاريق وتقسيم الماء فيما بينهم مما علمهم الحساب والهندسة ، ثم تعويلهم على الزرع فى موسم واحد وادخار جزء من الغلة للانتفاع به بقية السنة مما غرس فيهم التروى وبعد النظر .

وكان من يمن طالع هذه المجموعة البشرية أن تكون فى أمن من الغارات الخارجية بفضل البحر المتوسط وبفضل صحراويها ، فتعيش فى هدوء ودعة أجيالا طويلة تتيح لها بناء صرح الحضارة لبنة لبنة .

وزادت أواصر الوحدة توثقا عن طريق النيل إذ أن تياره يدفع السفن من الجنوب إلى الشمال بينما الرياح السائدة فى جزء كبير من الوادى تدفعها من الشمال إلى الجنوب ، وساعد على تعميق هذه الصلات أن الوادى كان مغلقاً فى طرفه الجنوبى بسبب الغابات الاستوائية ومنفصلا عن البحر الأحمر بسبب تلال صحراء العرب ، فكان اتصال أهل الجنوب بالعالم المتحضر يتم عن طريق مصر . ولم تكن الشلالات فى جنوب مصر وفى شمال السودان عائقاً لهذا الاتصال يوماً من الدهر ، حتى فى العهود الأولى حين كان أصغر العقبات يقف حاجزاً فى وجه الإنسان .

وفى الوقت نفسه ، كان سبق مصر إلى التحضر ، ووقوعها على البحر المتوسط مما طوع لها أن تكون حلقة ثقافية بين الوادى و بقية العالم المتمدين .

ولم يكن الوادى نفسه بأقل حرصاً على تنمية هذه الوحدة وتوكيدها ، كما هو واضح من تداخل كثير من المظاهر الطبيعية فى جنباته : يستوى فى هذا التداخل مظاهر السطح والمناخ والنبات ، إذ كلها تدرج طبيعى برىء من الانتقال المفاجىء .

فإذا نظرت إلى السطح امتدت أمامك صحراء العرب فى مصر والنوبة والسودان الشرقى إلى حدود الحبشة ، وانبسطت لناظريك صحراء ليبيا من

البحر المتوسط إلى كردفان ودارفور ، تريد أن تقول إنها تربط هذا الإقليم الشاسع وتقدم لك البرهان القاطع بطريق القوافل كما تراها فى الخريطة .

وبين الصحراوين ، يتهادى النيل بسهله الفيضى المحدود المعالم . والصحراوان والسهل جميعاً وحدة طبوغرافية لا تفرق بين مصر وسودان .

وإذا تدرت المناخ والنبات فى حوض النيل راعك تشابه درجات الحرارة فى صعيد مصر وشمال السودان من حيث أرقامها ومداها . وبان لك التشابه فى مقادير المطر ونظامه . ومثل ذلك يقال فى النباتات الطبيعية ، والغلات الزراعية .

وإليك صورة مصغرة من تدرج الأقاليم النباتية ، وأنت جد خبير بما له من الأثر فى حياة الإنسان والحيوان :

فإذا بدأت من الشمال فهناك إقليم صحراوى يضن بالنبات اللهم إلا حول الآبار ومن ثم كان قليل السكان ، وبينما أنت سائر فى هذه الصحراء إذا بك تدخل خطوة خطوة إلى إقليم ذى عشب ومرعى يكفى لرعى المعز والإبل في بعض أشهر السنة . وحين حل العرب بهذا الإقليم أحسوا كأنهم لم ينتقلوا من البيئة التى ألفوها فى شبه جزيرتهم ، فانتشروا فيها بسرعة حتى بلغوا الخرطوم وأقاموا على رعى الإبل ومن ثم عرفوا بالأبالة .

ثم لاحظ هؤلاء الأبالة أنه يجاورهم إلى الجنوب ابتداء من خط الخرطوم نوع من السافانا ينمو فيه العشب إلى ارتفاع لا عهد لهم به . فأخذوا يتغلغلون فيه رويداً رويداً ، حتى اعتادوا الحياة فيه على مر الأيام . وأدركوا بالتجربة

أن هذه السافانا أصلح لرعى الماشية فعكفوا على تربية البقر ، وعرفوا من أجل ذلك بالبقارة .

ثم تسربوا فى أعداد قليلة وفى حركة بطيئة إلى الجنوب والغرب من هذا الإقليم ، فوجدوا أرضاً يختلط فيها الكلأ الطويل بالأشجار الباسقة وخالطوا أهله من الدنكا والنوير . ولو تركوا لسجيتهم لتوسعوا فى تربية الماشية فى ناحية الجنوب حتى يبلغوا منطقة الذباب القاتل للماشية ، والمأمول أن يرفع عنهم هذا الخطر فيتموا تعريب السودان إلى أقصى حدوده .

ولا تقل الصحراوات عن الوادى نشاطاً فى الربط بين أهله . والصحارى الشرقية والغربية لا تغير شيئاً من نسقها بين مصر والسودان فلا تقيم عقبة واحدة بينهما ، بل إنها تعمل على الاتحاد والاندماج بين السكان سواء كانت الهجرات من الجنوب إلى الشمال أو من الشمال إلى الجنوب ، وذلك بفضل كثرة المسالك فيها ، كما يتضح من خرائط الدروب والطرق التى استخدمتها القوافل من فجر التاريخ وما برحت تستخدمها إلى اليوم . وبحسبك دليلا على ذلك أن الحدود المصطنعة بين شقى الوادى تقسم أراضى القبيلة الواحدة بمراعيها وآبارها بحيث تجعل قسماً منها داخل حدود مصر وتجعل القسم الآخر فى حدود السودان كما هو الشأن فى جماعات البشاريين الذين تحاول هذه الحدود تمزيق شملهم بالاختلاف على توزيع الآبار والمراعى التى تحتم تقاليدهم أن يستغلوها استغلالا مشتركا على أساس أن الماء والمراعى ملك مشاع للجميع .

الوحدة الجنسية

لم يعد خافياً على أحد أن الحاميين والساميين كليهما من المجموعة البشرية التى اصطلح العلماء على تسميتها بجنس البحر المتوسط ، وإن هذا الجنس بدوره ينتمى إلى المجموعة القوقازية . ولم يعد خافياً كذلك أن التفريق بين حامى وسامى أساسه الثقافة بما فيها اللغة ، منضما ذلك إلى فوارق ثانوية ناشئة من اختلاف المؤثرات التى أحاطت بكل من الصنوين بعد انفصاله عن الآخر . ومن أجل هذا الاتحاد فى الجنس لاينشأ عن التزاوج بين الحاميين والساميين أثر ظاهر فى الصفات الجثمانية ، وإنما يكون الأثر واضحاً فى اللغة وما إليها من مظاهر الثقافة .

ونحن أهل وادى النيل ننتسب إلى الحاميين الذين سكنوا مصر والنوبة من أقدم العصور والذين ساهموا مساهمة أساسية فى التكوين الجنسى لسكان السودان بأجمعه . وهذا هو السبب فى أننا حين ننتقل من إحدى مناطق الوادى إلى المنطقة المجاورة لها ، لا نجد تغيراً مفاجئاً فى لون البشرة أو شكل الأنف أو تركيب الشعر .

وإذا كان اتصال السودان بمنطقة الزنوج الواقعة إلى الغرب وإلى الجنوب منه اتصالا قضى به انعدام الفواصل الطبيعية بينه وبين هذه المنطقة ، إذا كان هذا الاتصال أدى إلى تسرب العنصر الزنجى إلى السودان ، وبخاصة إلى جنوبه ، فإن ذلك لم يخف الأصل الحامى لسكان الوادى ، وما لذلك الأصل من أثر قوى فى الجنس واللغة والحضارة حتى فى القبائل شبه الزنجية أمثال

الشلوك والدنكا والنوير ، لأن هؤلاء ما يزالون بعيدين عن صفات الزنوج الحقيقية . ومن ثم كان من الخطأ البحت القول بوجود سودان قوقازى وسودان زنجى ، أو كما يزعم المغرضون ، سودان شمالى وسودان جنوبى .

وقد دخل العرب أفريقية قبل الإسلام بأكثر من ألف عام ونشطت حركتهم بمصر والسودان بوجه خاص أيام البطالمة والرومان ، إذ أخذ كثير من الحميريين ينتقلون إلى أفريقية قبل ميلاد المسيح عليه السلام ، وسار بعضهم مع النيل الأزرق ونهر عطبره حتى بلغوا النوبة ، ونشروا لغتهم وثقافتهم حيثما حلوا .

وحدث مثل ذلك فى مصر قبل الإسلام بزمن طويل واستقر كثير من العرب بالصحراء الشرقية حتى سميت باسمهم ، وسكن بعضهم المدن حتى قال سترابون (٥٤ ق . م — ٢١ م) عن قفط إنها مدينة نصف عربية . ومن العرب الذين نزلوا مصر أناس تابعوا السير جنوبا وانتشروا فى السودان فعمته لغتهم وغيرها من عناصر ثقافتهم وظهر أثرهم على أشده فى قبائل الكبابيش .

انتشار الإسلام فى وادى النيل

لما تم للعرب فتح الشام — ما عدا ثغوراً قليلة بقيت تقاوم بفضل امداد الأسطول الرومى لها — رأى عمر بن الخطاب أن يعقد مؤتمراً بحضرة كبار القواد وذرو الرأى لتقرير الخطة التى يجب أن يسير عليها المسلمون فى البلاد التى فتحوها من حيث إقرار الأمن فيها ورعاية مصالح أهلها ، ومن

حيث الاحتفاظ بها ومدافعة الأعداء عنها . ورأى أن يكون هـــذا المؤتمر فى الشام حيث يوجد عدد كبير من القواد وحيث يستطيع أن يرى أحوال البلاد بنفسه .

واختار للمؤتمر مكاناً كان قواد العرب قد اتخذوا منه مقراً لقيادتهم العليا بالشام وهو الجابية . وإنما اختاروا الجابية لوقوعها على الأرض المرتفعة القائمة إلى الشرق من بحر الجليل (بحيرة طبرية) بحيث تستطيع جنودهم أن تسير على الطرق الرومانية القديمة إلى دمشق فى الشمال وإلى الأردن وفلسطين فى الجنوب وإلى طبرية فى الغرب . والجابية — فضلا عن ذلك — تحيط بها المروج الخضراء ويكثر بها الكلأ الذى لا تستغنى عنه إبل العرب وخيلهم .

وانعقد المؤتمر فى الجابية ، وفيه اتضح لعمر ولقواده أنه لا قرار للعرب بالشام ما دام الروم يستطيعون أن ينقضوا عليهم من مصر ويقطعوا عليهم خط الرجعة إلى المدينة ، وقدر المؤتمر أن ما اشتهرت به مصر من الثروة ، وما عرف عن أهلها من البراعة فى صناعة السفن ، وما تضمه الإسكندرية والقلزم وسائر ثغورها من الأساطيل — قدر المؤتمر أن ذلك كله من شأنه أن يشجع الروم على تجييش الجيوش منها ، وتسيير الأساطيل من ثغورها فى البحرين المتوسط والأحمر للقضاء على تجارة المسلمين ، فبان له أن الاحتفاظ بالشام يحتم عليه إبعاد الروم عن مصر .

وتنفيذاً لقرار مؤتمر الجابية أسند أمير المؤمنين فتح مصر إلى عمرو ابن العاص ، وربما كان من أسباب ذلك سابق معرفته بها ، وفرط تحمسه لفتحها . وسارع عمرو لإنجاز مهمته ، وأملت عليه طبيعة الأرض السير

فى الطريق الذى سلكه أكثر الداخلين من الشام إلى مصر والخارجين من مصر إلى الشام سواء فى ذلك الفاتحون والمهاجرون والتجار والحجاج : ذلك بأن من يريد عبور أرض قاحلة أو شبه قاحلة لا مناص له من تحرى السير فى الطريق الذى يجد فيه ما يكفيه من الماء الصالح للشرب . ومواقع الماء فى القسم الشمالى من شبه جزيرة سيناء تبدأ من العريش وهى بقعة غنية بمائها ومزارعها ونخيلها ، وتسير بعيدة عن الساحل قليلا لأن التربة هنالك تحتفظ بماء المطر على غور قليل ، ولأن الأرض جامدة فى أكثر أجزائها . فإذا جاوزت قاطية وقربت من بور فؤاد الحالية اتجهت إلى الشمال الغربى لتتجنب الكثبان الرملية الواقعة إلى الجنوب من الفرما .

ولما بلغ العرب هذه المدينة وجدوها محصنة كما وجدوا بها حامية قاومت نحو شهر فلما استولوا عليها أخذوا اتجاهاً جنوبياً غربياً حتى وصلوا إلى موضع القنطرة الحالية فى أول سنة ١٩ هـ . وأول سنة ٦٤٠ م . ومن ثم لازموا حافة الصحراء حتى بلبيس حيث وقف لهم الروم فترة .

ثم قصدوا حصن بابليون الذى اختاره الأقدمون على نحو ٢٣ كيلو متراً من رأس الدلتا ليشرف منه الجند على الوجهين القبلى والبحرى وليطل على النيل فيكون ذلك وقاية له من ناحية الغرب ووسيلة اتصال بين حاميته وبقية البلاد . وآثار حصن بابليون تعرف اليوم بقصر الشمع ويوجد بداخله المتحف القبطى والكنيسة المعلقة .

ولمناعة موقعه طال حصاره سبعة أشهر . فلما سلمت الحامية سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) عبر عمرو النيل وسار محاذياً له ثم لفرع رشيد بحيث يكون على

حافة الصحراء التى يألفها العرب ، وبحيث يستطيع فى الوقت نفسه أن يرد الماء . فلما طلع الجيش العربى على الإسكندرية هاله موقعها وحصونها . فأما موقعها فبين البحر المتوسط وبحيرة مريوط وبذلك يحمى الماء جانبين منها وأما حصونها فتمكن حاميتها من المقاومة الطويلة بفضل مناعتها وبفضل اتصال الحامية بعاصمة الروم عن طريق البحر .

ولما يئست الحامية الرومية من الانتصار على العرب تقرر الصلح بين الطرفين فكان فتح مصر صلحاً وذلك سنة ٢٠ ﻫ (٦٤١ م)ومنذ ذلك الوقت أخذت مصر تصطبغ بالصبغة الإسلامية تدريجاً حتى صارت بلداً إسلامياً لغته العربية وأهم عناصر ثقافته إسلامية عربية .

ولما كان وادى النيل وحدة طبيعية كما سبق القول ، لم يكن للعرب بد من ارتياده كما ارتاده من قبلهم ، فبلغوا النوبة وعقدوا معها معاهدة تجارية عرفت باسم البقط بمعنى العهد والميثاق[1] وأنشئوا مسجداً فى دمقلة فسرى إلى تلك البلاد دينهم ولكن سيره بقى بطيئا بسبب قوة دولة النوبة التى بقيت على المسيحية إلى القرن الثالث عشر الميلادى .

أما السودان فان العرب المسلمين دخلوه عن طريق مصر وعن طريق البحر الأحمر فلم يجدوا أنفسهم غرباء فيه ، بل وجدوا بنى جنسهم قد سبقوهم إليه ، ووجدوا فيه مراعى أصلح لإبلهم مما رأوا فى مصر ، فأكثروا الارتحال إليه . ولم يقتصروا على المراعى الصالحة للإبل بل تجاوزوها جنوباً إلى مراعى البقر وحذقوا تربيتها فصار منهم الأبالة والبقارة .

(١) وذلك سنة ٣١ ﻫ (٦٥٢ م) .

ومن الهجرات العربية المهمة هجرة بعض الأمويين وأتباعهم حين قضى العباسيون على الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ — ٧٥٠ ميلادية وإقامتهم فى منطقة سنار وانضمام كثير من العرب إليهم وإصهار هؤلاء وأولئك إلى السكان ونشر الدين الحنيف بينهم منضما إليه لغتهم وتقاليدهم .

وما زالت قوة هذه الجماعة تزداد حتى نشأ عنها اتحاد الفنج وبذلك قطعوا بين الحبشة المسيحية والنوبة المسيحية . ثم تضافروا مع المسلمين من أهل شمال الوادى فقضوا على مملكة النوبة وكانت قد انقسمت إلى مملكتين ، ونشروا الإسلام فى كل أنحائها وتمت بذلك وحدة وادى النيل من الوجهات الدينية واللغوية والثقافية كما تمت من قبل ذلك بألوف السنين من الوجهة الطبيعية .

الفصل السادس

بلاد المغرب

تمهيد — الحوض الغربي من البحر المتوسط

البحر الأبيض المتوسط يحد أوربا من ناحية الجنوب وأفريقية من ناحية الشمال وبعض آسيا من ناحية الغرب . وليس معنى هذا أنه يعزل كل قارة عن الأخريين ، بل إنه على العكس جعل الصلة بين مصر والأناضول عن طريق البحر أقوى من الصلة بين مصر والشام عن طريق البر ؛ وعلى هذا النمط ربط الشعوب المحيطة به فأثر كل منها فى حضارة الآخر بشتى الوسائل حتى ليمكن أن نقول بأن لهذا البحر حضارة مشتركة ، ذات صبغة خاصة تعاونت شعوبه فى تشكيلها على الرغم من اختلاف العادات والأديان .

ودليل ذلك ظاهر فى التاريخ ، فإن أوروبا بدأت باقتراض حضارتها من مصر وآسيا ، ثم انتشرت حضارة الإغريق فى آسيا ومصر أيام دولة الإسكندر والدول التى قامت على أنقاضها مثل دولة البطالمة فى مصر ، فلما أضاءت حضارة الإسلام كان هذا البحر واسطة لنقلها إلى أوربا ، وها نحن نراه يربطنا بمدنية أوروبا الحديثة بروابط تزيد على مر الأيام توثقا . ومن أجل ذلك يسعى كثير من ساسة العصر إلى إنشاء حلف يضم بلاد هذا البحر .

وينقسم البحر الأبيض المتوسط حوضين يهمنا منهما الحوض الغربى ، وحدوده إجمالا جبال الألب وجبال « بنانن » وجبال صقلية التى تنغطس تحت الماء ثم تظهر فى شبه جزيرة تونس ، ومن ثم جبال أطلس التى تمتد سلاسل متوازية تنتهى بالتقوس شمالا فى بلاد الريف . وكانت هذه الجبال قبل أن ينشأ مضيق جبل طارق تتصل اتصالا مباشراً بجبال سييرا نفادا فى أسبانيا . وهـذه بدورها تتصل بجبال جزر البليار والسلسلة الضيقة التى يخترقها نهر « إبرو » ثم تنخفض فى خليج ليون إلى أن تظهر إلى الشرق من نهر الرون باسم مرتفعات بروفنس التى تتصل بجبال الألب .

ومن هـذا يتضح أن أوربا وأفريقية كانتا متصلتين . وما يزال الباب الذى يفصل بينهما بمقدار ٢٩ كيلو متراً — وهو مضيق جبـل طارق — ذا عتبة هائلة ترتفع عن قاع المحيط الأطلسى بنحو ٣٥٠ متراً ، وهذه العتبة تمنع الماء البارد الذى بقاع المحيط من دخول البحر المتوسط ، فلا يدخل إليه إلا الماء السطحى وهو دفء يحدث تأثيراً حسناً فى مناخ هذا البحر فى فصل الشتاء . ولهذا الحوض الغربى باب آخر هو مضيق صقلية ويبلغ اتساعه ١٣١ كيلو متراً . ومن خصائص هذين البابين أن الدولة التى تسيطر على ضفة أحدهما لا بد أن تحاول الاستيلاء على الضفة الأخرى .

فأما مضيق جبل طارق فلعل الفينيقيين أول من فطن لأهميته ، وذلك فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، فسارعوا إلى التحكم فى ضفتيه ، وضمنوا بذلك استيراد القصدير من بريطانيا دون أن يهدد أحد خطوط مواصلاتهم .

واستولى الرومان على أسبانيا نحو سنة ٢٠٤ . م . ثم أخذوا جزءاً من

بلاد المغرب فى عهد أغسطس (سنة ٣٠ ق . م إلى سنة ١٤ م) وبلغ من شدة ارتباط الضفتين أن كانت ممتلكاتهم فى أسبانيا وفى المغرب بمثابة مستعمرة واحدة .

ولما ملك القوط أسبانيا امتد نفوذهم إلى سبته . ثم جاء المسلمون فملكوا الضفتين سنة ٧١١ م . وظهر الارتباط بينهما من جديد ، فكانت أسبانيا تابعة فى الإدارة لبلاد المغرب ، بمعنى أن الضفتين كانتا تعدان ولاية واحدة وبقيت الضفتان فى أيدى المسلمين نحو ٨٠٠ سنة .

وها نحن نرى اهتمام أسبانيا بتوسيع نفوذها فى الريف . وليس من شك فى أنها ترنو إلى استعادة جبل طارق من يد بريطانيا ، بينما تبذل هذه جهد المستميت للاحتفاظ بهذه الصخرة ضماناً لمصالحها فى الشرق .

وأما مضيق صقلية فقد ملكته قرطاجنة بالسيطرة على جزء من جزيرة صقلية . فلما كانت الحرب البونية الأولى نحو سنة ٢٦٠ ق . م . انتزعت روما صقلية من القرطاجنيين ، وجعلت من هذه الجزيرة قاعدة حربية للقضاء على قرطاجنة وتم لها ذلك سنة ١٤٦ ق . م .

ولم يمض ربع قرن على ذلك حتى أنشأت روما مستعمرة جديدة على أنقاض قرطاجنة ، نزح إليها كثير من الرومان وعمروها وبقيت مرتكزاً لقوتهم تدافع المسلمين زمناً طويلا حتى اضطر حسان بن النعمان الغسانى إلى تخريبها سنة ٨٣ هجرية — ٧٠٢ م . وأنشأ إلى جانبها مدينة تونس .

ولما استقر ملك المسلمين فى أفريقية كان من أول أهدافهم امتلاك

صقلية ، وما برحوا يغزونها حتى امتلكوها على يد الأغالبة فى نحو منتصف القرن الثالث الهجرى .

فلما ملك النورمانديون صقلية بذلوا جهداً كبيراً للاستيلاء على الضفة الإفريقية ، ونجحوا ، فى امتلاك المهـــدية مدة ، ولما صارت صقلية إلى « شارلكان » « شارل الخامس » امبراطور ألمانيا وملك أسبانيا استولى على تونس سنة ١٥٣٥ م .

وما كادت إيطاليا تجمع شملها ، وتنعم باستقلالها حتى تطلعت إلى تونس لولا أن سبقتها فرنسا عام ١٨٧٥ م ، على أن هـذا لم يمنع تسرب العنصر الإيطالى إلى تونس ، فبينما كان الفرنسيون فيها سنة ١٩٣٥ ، ٣٥ ألفا ، إذا بالإيطاليين مائة ألف أكثرهم من أهل صقلية يعيشون جماعات متعاونة تحتفظ بلغتها وعاداتها ، ويكثر نسلها بشكل مخيف حتى أصبحت دولة فى جوف دولة . ومطالب إيطاليا فى تونس معروفة من قبل أن تقوم الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ . ولعل من أسباب دخولها فى جانب ألمانيا فى تلك الحرب رغبتها فى تملك تونس . ولو انتصر الجانب الذى انضمت إليه لكان من المرجح كثيراً استيلاؤها على تلك البلاد وطرد فرنسا منها .

بلاد المغرب

ومن أهم أجزاء الحوض الغربى للبحر المتوسط شمال أفريقية الغربى ، وتحده الصحراء الكبرى من الشرق والجنوب ، ويحف به الماء من الشمال والغرب ، والساحل قليل المرافىء أكثر ما فيه فجوات هلالية الشكل

معرضة للرياح الشمالية التى تهب فى الصيف ، وهو أكثر فصـــول السنة صلاحية للملاحة . ولاتوجد إلا فجوات قليلة على شكل أكياس تؤدى جوانبها شيئاً من الوقاية للسفن . وأهم هذه المرافىء تونس وبنزرت وبجاية ووهران .

والنتيجة أن شمال أفريقية الغربى يصعب التوغل فيه من ناحية البحر المتوسط . فلما أراد الغزاة الأقدمون التوغل فيه لم يجدوا من الساحل صدراً رحباً ، ثم عاقتهم الغابات التى كانت تكثر فيه . لأن أشجارها وعشبها كانت تضيع معالم الدروب ، ولأن الأقدمين كانو يرهبون ظلام الغابات ، حيث يتمكن السكان من التربص المارة عامة ، وللغزاة خاصة .

وعاونت الصحراء كذلك فى وقاية هذه البلاد من الغزو فى الزمن القديم وبخاصة لأن الإبل لم تكن معروفة بها قبل ميلاد المسيح ، فلم يكن قطع الصحراء على ظهور الخيل بالأمر الهين فبقيت الصحراء تفصل بين السودان وبلاد المغرب حتى انبرى لها العرب ، وقد نبتوا فى صحراء مثلها وتثقفوا بثقافتها فذللوها لأول مرة فى التاريخ ، وعبدوها للأغراض الحربية والاقتصادية ، بعد أن كان أهل السودان منعزلين عن بلاد المغرب لايعرفون عنها شيئاً .

وفى داخل بلاد المغرب تمتد جبال أطلس من مضيق صقلية إلى المحيط الأطلسى ، وتنقسم من حيث التضاريس ثلاثة أقسام :

أولها الأطلس البحرية — وتعرف بالتل — وهى مجموعة سلاسل تحاذى الساحل ومنها شعبة الأطلس الصغرى المعروفة بجبال الريف . وهذه السلسلة

ترتفع من الساحل ارتفاعاً شاهقاً ولا تترك بينها و بين البحر المتوسط إلا سهلا ساحلياً ضيقا .

وثانيها الأطلس الصحراوية وتمتد فى بلاد الجزائر الحالية وتنحدر انحداراً شديداً نحو الصحراء ، وتبعث بمجارى مائية قصيرة تغذى عدداً من الواحات . وبين التل والأطلس الصحراوية تقع هضبة الشطوط أو البحيرات الملحة وتعلو سطح البحر بنحو ٩٠٠ متر . وهى قليلة الأمطار ، ولهذا كان أكثرها مراعى وانبنى على ذلك ارتباط أهلها ببدو الصحراء أكثر من ارتباطهم بأهل السهل الساحلى حيث الحرث والمدن .

وثالثها الأطلس الكبرى وتمتد فى المغرب الأقصى .

ومنطقة الأطلس بأجمعها أكثر شبها بأوربا منها بأفريقية ، وفيها نشأت المستعمرات القديمة ، حيث فتحت الطبيعة أبواباً ، ومهدت ودياناً تسرب المستعمرون بواسطتها من الساحل إلى داخل البلاد . وأهم هذه الوديان مجردة وهو نهر تونس ، وشليف وسبو ، وأم الربيع وتنسفت والسوس . أما حيث لا توجد وديان فتنحصر التجارة والمستعمرات قرب الساحل . وأكبر مساحة زراعية توجد فى تونس الحالية حيث قامت دولة قرطاجنة ، إذ كان المطر يكفى لإنبات القمح وغيره من الحبوب إلى جانب الزيتون والفاكهة .

وعند خليج قابس تندمج الجبال فى هضبة أفريقية ، ويظهر سهل ساحلى عرضه لا يزيد على ٤٨ كيلو متراً ، كان وما يزال طريق الهجرة والحرب والتجارة والحج بين بلاد المغرب ومصر . و بواسطة هذا النطاق امتد حكم مصر أيام الفراعنة إلى خليج سدره ، وفيه سار الفرس فى القرن السادس قبل

الميلاد ، وسلكه العرب من مصر حين أرادوا فتح بلاد المغرب . أما ما يلي هذا السهل الساحلي جنوباً فصحراء رملية لا تسهل فيها الحركة ولا سيما على الجماعات الكبيرة .

وبلاد المغرب تتمتع بمناخ البحر الأبيض المتوسط ، ومطره شتوى يوافق نمو الحبوب والغلال . وبسبب الارتفاع نجده معتدل الحرارة ، ويوجد الثلج على قمم بعض جباله طوال العام .

حال البربر قبيل الفتح الإسلامي

استقر البربر في شمال أفريقية من عهد ما قبل التاريخ . وتسعة أعشارهم من الجنس الحامي نزحوا من الشرق عن طريق السهل الساحلي المجاور للبحر المتوسط ، وبقيتهم من الشقر يغلب أنهم جاءوا من شمال أوروبا عن طريق جبل طارق .

واختلط بالسكان الأصليين أناس من الفاتحين من فينيقيين وإغريق ورومان ووندال وقوط . ولكن تأثير هذه الأمم الغالبة كان ضعيفاً في الجنس واللغة والتقاليد ، فقد بقي السواد الأعظم بربرياً واقتصر الأثر الأجنبي على السواحل ، كما بقي نظام القبائل سائداً في داخل البلاد تطبق كل قبيلة عرفها وتقاليدها شأن قبائل العرب ، وكانوا يشبهون العرب كذلك في حروبهم وجلدهم وتخشنهم ، وفي عبادة الأوثان والنجوم ، وقد اكتفى الرومان منهم بالجزية وتركوهم تحت حكم شيوخهم ، على أن نار الرغبة في الاستقلال لم تخمد أوارها .

ولما ضعف سلطان الروم برزت شخصية البربر ؛ فلما اعتنق بعضهم المسيحية على مذهب يخالف مذهب الحكومة تحولت الخلافات الدينية حربا بين الأجناس كما كانت الحال بمصر بين الروم الملكانيين والمصريين اليعاقبة .

وكانت الحكومة فى المغرب تعاقب مخالفيها أشد العقاب ، وبلغ من ذلك أن أحد الأباطرة شلح ٣٠٠ أسقف وألوفاً من صغار القسوس ونفاهم ، وحرم على العامة إقامة شعائر الدين كما حرم المخالفين منهم حقوقهم المدنية . فكان هذا الاضطهاد الدينى مذكياً لنار العداء الجنسى فكثرت الثورات على الروم وتحرر كثير من البربر من نير الحكومة على حد قول ابن خلدون : « وصار لهم وراء الأمصار المرهوبة ما شاء الله من قوة وعدة وعدد ، وملوك ورؤساء لا ينالهم الروم والفرنج بسخطة ولا إساءة » .

على مثل هذه الحال كان البربر حين دخل العرب بلادهم فواجه العرب قبائل لا تقل عنهم بداوة وبأساً ، وتمتاز بلادها عن جزيرة العرب بجبالها الشامخة ومسالكها الوعرة وكثرة وديانها الخصيبة ، مما يهيىء للمدافعين عنها فرصاً كثيرة للايقاع بالمغير ، حين تهب كل قبيلة للذود عن ذمارها . وكان جمهور البربر قبائل بدوية يعيش أكثرها على الرعى فى هضبة الشطوط وفى الأطلس الصحراوية والكبرى ؛ ومن باب أولى فى الوديان الكثيرة التى تنحدر من هذه الجبال إلى الصحراء والتى تكثر فيها الواحات .

وبسبب ضيق السهل الساحلى الخصيب وصعوبة الاتصال بين أجزاء البلاد لم تقم فيها دولة كبيرة تجمع شتاتها فترة طويلة من الزمن كما حدث فى

مصر ، وإنما قامت فيها فى أكثر حقب التاريخ ، دويلات صغيرة متنافسة شأنها فى ذلك شأن بلاد اليونان حيث قامت المدن الحكومية المتفرقة قبل أن تخضع تلك البلاد للمقدونيين ثم للرومان .

وانبنى على هـــذا التشتت السياسى الذى أملته طبيعة البلاد أن كان السهل الساحلى الخصيب مطمح أنظار المستعمرين فى مختلف العصور . وكان بعضهم يتوغل إلى الداخل عن طريق وديان الأنهار . ولكن هذه الطبيعة بذاتها حين أطمعت المستعمرين فى البلاد طوعت لأهلها وسائل المقاومة متى استطاعوا . فإذا عجزوا لجئوا إلى قنن الجبال وتحصنوا بالصحراء ، يتربصون بالعدو ، حتى إذا لاحت الفرصة خرجوا من كهوف الجبال ومخابئها العديدة مما يتمثل فى جبل أوراس ، وهرعوا كذلك من جوف الصحراء وانقضوا على المدن وأهلكوا الحرث والنسل يريدون مطاردة الأجنبى .

ويهمنا من ضروب مقاومة البربر ماحدث أيام الفتح الإسلامى ، وملخصه أن العرب حين فتحوا مصر تحتم عليهم فتح برقة إذ كانت ملحقة بمصر بوصفها الدوقية الخامسة . فلما بلغ عمرو بن العاص إلى أطرابلس كتب إلى عمر : « إنا قد بلغنا أطرابلس وبينها وبين أفريقية تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا فى غزوها فعل » فرد عليه عمر : « ما هى بإفريقية ولكنها مفرقة غادرة مغدور بها » ولعله أراد أن الجيوش التى تغزوها لا مناص لها من التفرق فى أقسامها الطبيعية وأنها تغدر بالغازين فى مكامنها الكثيرة حين يخيل إليهم أنهم امتلكوها ، وأن هؤلاء الغازين يغدرون بها انتقاماً لأنفسهم .

ومصداق ذلك أن العرب فتحوا العراق والجزيرة وفارس والشام ومصر في عشر سنين ، بينما استغرق إخضاع أفريقية ما يقرب من سبعين سنة . وأول من حاول ذلك عبد الله بن سعد والى مصر لحاربها مرتين على غير جدوى . ثم حاول ذلك معاوية بن حديج فى عصر أمير المؤمنين معاوية فضاعت جهوده أدراج الرياح .

وكان عقبة بن نافع الفهرى قد قضى ربع قرن بالمغرب فرأى فى غزوة قام بها سنة ٥٠ هـ — ٦٧٠ م . أنه لا مقام للعرب بأفريقية ما دام قرب صقلية يطوع لأسطول الروم استردادها من العرب كما شاهد ذلك بنفسه اكثر من مرة . وأعمل عقبة الفكر فبان له أن من أسباب تراجع العرب عن أفريقية طول خط مواصلاتهم بينها وبين أقرب مرتكز لهم وهو الفسطاط . فاستقر رأيه على أن خير وسيلة للاستقرار بالمغرب إنما هى الاحتفاظ فيها بجيش دائم ، وأن ذلك يستدعى إنشاء مدينة جديدة تكون مقر عسكر المسلمين وموطن أهليهم وتحفظ فيها أموالهم .

فاختار لذلك موقعاً له ميزات عديدة من حيث الحرب والاقتصاد والمواصلات وأنشأ فيه القيروان فى رقعة تكفى مزارعها لتموين الحامية ومن معها ، بعيدة عن الساحل بحيث لا ينالها الأسطول الرومى ، وفى مواجهة جبل أوراس الذى كثيراً ما قاوم سكانه الفاتحين من قبل ، وعلى محجة القوافل بحيث يستطيع الجيش العربى اذا اضطر أن يتقهقر إلى فئته ببرقة والفسطاط .

وقد أعجب كثير من الكتاب الأوروبيين بحسن بصر عقبة بالاستراتيجية

فقال أحد الفرنسيين : « لا ريب أنه فى غضون عشر السنين الأولى من الفتح العربى كانت أهم المعارك تدور حول أوراس ، كما كانت الحال فى القرن السابق على الفتح أيام حكم الروم فى أفريقية » .

ومن هذا المرتكز الجديد اخترق عقبة بلاد المغرب (نحو سنة ٦٢ هـ سنة ٦٨٢ م) إلى ساحل الأطلنطى ودخل فى الإسلام أناس من البربر منهم كسيلة بن الأعز الأوربى ، ولكنه على الرغم من إسلامه ساءه أن يستصغر العرب قومه فانتهز وجود عقبة فى قلة من الجند وأثار عليه البربر وجماعة من الروم وانقض عليه فى تهوذه على نهر الزاب فاستشهد عقبة وجميع رجاله . وما يزال ضريح عقبة إلى اليوم مزاراً لألوف مؤلفة من جميع نواحى المغرب .

وحكم كسيلة أفريقية خمس سنين ، ومكن له فيها خلاف بنى أمية وابن الزبير . فلما قتل عبد الله ، أرسل عبد الملك فى سنة ٧٦ هـ سنة ٦٩٥ م جيشاً لم تر أفريقية أكثر منه وجعل قيادته إلى حسان بن النعمان الغسانى فرأى هذا أن اطمئنان العرب هنالك يستدعى القضاء على الحامية الرومية فى قرطاجنة وتخريب ذلك الثغر . ونفذ عزمه بمساعدة أسطول إسلامى .

وبعد تخريب قرطاجنة رأى حسان أن ينشىء ثغراً على البحر المتوسط يدفع الروم إذا حاولوا تعمير قرطاجنة ، واختار لذلك مكاناً إلى الجنوب من قرطاجنة به بحيرة ضحلة تبعد عن الساحل بستة كيلو مترات ونصف كيلو متر ، وحفر حسان فى البرزخ الذى يفصل البحيرة عن الساحل قناة عميقة تسير فيها

السفن . ثم حفر من البحيرة قناة قليلة العمق لاتصل فيها إلى تونس إلا الزوارق الصغيرة . وبذلك نشأت تونس ثغراً بعيداً عن الساحل بحيث يطمئن العرب إلى سكناه غير حاسبين لإغارات الروم حساباً ، وتحميه البحيرة من أمواج البحر ويمكن الإغارة منه على صقلية وغيرها من بلاد الروم .

إلى جانب هذا ، طلب حسانٌ إلى أمير المؤمنين عبد الملك الإذن بإنشاء « دار صناعة » لبناء أسطول عربى ، فبعث إليه عبد الملك بألف من صناع مصر الحاذقين فى صناعة السفن أنشئوا دار صناعة فى تونس . واستقر هؤلاء المصريون هنالك بأهلهم وولدهم وأشاعوا فى الثغر الجديد روحاً صناعياً بحرياً جعل تونس المنفذ البحرى إلى صقلية وسردانية وإيطاليا .

غير أن البربر رغم إسلام كثير منهم ، ورغم قضاء حسان على كسيلة الأوربى ، ظهر من بينهم زعيمة يهودية عرفت بالكاهنة انقادت لها قبيلة جراوة المقيمة حول جبل أوراس وهو من أمنع جبال المغرب إن لم يكن أمنعها جميعاً . وتغلبت الكاهنة على حسان وطاردته إلى برقة .

ولما كانت الكاهنة وقومها بدوا لايقيمون للمدن وزنا قالت لهم : « إنما يطلب العرب من المغرب مدنه وما فيها من ذهب وفضة ، ونحن إنما نريد المزارع والمراعى . فالرأى أن نخرب هذه المدن والحصون ونقطع أطماع العرب منها » . وفى ذلك يقول ابن خلدون : « كانت المدن والضياع من طرابلس إلى طنجة ظلا واحدا ، فخربت الكاهنة ديار المغرب ، وجاست بالفساد خلاله . فشق ذلك على البربر ، واستأمنوا إلى حسان فأمنهم » ومعنى

ذلك أن تفرق أهل المغرب قبائل متحاسدة ، حمل فريقا منهم — وهم أهل الحضر على الأكثر — على مناوأة الكاهنة ، فاستطاع حسان أن يقضي عليها سنة ٨١ هـ قرب جبل أوراس . لكن حسانا مع ذلك كان قد تعلم من الحوادث السابقة أنه لاسبيل إلى إخضاع البربر بالقوة وحدها ، فعمد إلى استرضائهم عامة بأن جعل منهم ١٢٠٠٠ يلازمونه في القتال ، وسوى بينهم وبين العرب في الحقوق والواجبات . واستمال أعوان الكاهنة بنوع خاص بأن عقد لأكبر أبنائها على جراوة وجبل أوراس .

وبعد هذا كله ، خرج كثير من البربر على العرب فاضطر موسى بن نصير في نحو سنة ٨٩ هـ أن يقاتلهم في تلمسان . فلما انتصر عليهم استأنف استرضاءهم ، فولى طارق بن زياد على طنجة ، وتوسع في إدماج البربر في جيشه وخصص جزءاً كبيراً من المال الذي كان يبعث به إليه أمير المؤمنين فكان يشترى بذلك الجزء من يتوسم فيهم الهداية من أسرى البربر . فإذا أظهروا استعداداً ومواهب أعتقهم في الحال وعينهم في مراتب هامة في الجيش . ومن الوسائل التي لجأ إليها موسى لكسب رضاء البربر اختياره جماعة من ثقات القراء والفقهاء لنشر الإسلام بينهم .

ومن ذلك الوقت صارت بلاد المغرب الجناح الأيسر لقوات الإسلام . وفي وصف هذا الانقلاب يقول مؤرخ فرنسي : « هذه نتيجة تستحق الإعجاب إذ أنه قلما يحدثنا التاريخ عن استعمار على وجه الكرة الأرضية وفق إلى مثل هذا النجاح » . ويقول مؤرخ آخر من غير المسلمين : « الحق أن تأثير

الفاتحين الأقدمين كان مقصوراً على النطاق الضيق الخصب المجاور للساحل ، وكان من هذا التأثير أن سكان هذا النطاق وحدهم اعتنقوا المسيحية أيام الرومان والبيزنطيين ، أما فيما عدا ذلك فإن السكان لم يتأثروا تأثراً عميقاً بالحضارة الرومانية — مثلا — لأن الرومان والبيزنطيين كانوا يعيشون غالباً في المدن الساحلية .

أما صبغ جموع البربر بصبغة عربية وتحويلهم إلى عقيدة الإسلام ، وتجنيد جند منهم يتسابقون في مضمار الفتوح ، فتلك معجزة الإسلام التي مكنت له من إنشاء وطن جديد استعان به في ارتقاء سلم الزعامة العالمية » .

وتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، فأرسل إلى المغرب عالماً زاهداً هو إسماعيل بن عبيد الله المخزومي والياً على الحرب والخراج والصدقات ، وبعث معه بعشرة من الفقهاء على غراره فتضافروا وإياه على نشر الإسلام في تلك البلاد فاتسعت دائرته اتساعاً عظيما .

ورسخت قدم الإسلام في المغرب نهائياً بقيام دول مغربية إسلامية ، تولت الحكم في نواحي البلاد المختلفة . وعملت على نشر الدين وتطهيره مما عاق به من الخرافات وآثار الجهل . وبذلك امتزج الدين والقومية امتزاجا تاما بحيث لم يعد يمكن فصل أحدهما عن الآخر . ومن أهم تلك الدول المغربية المرابطون والموحدون .

وإنما تعددت الدول في بلاد المغرب وكثرت فيها الثورات ، بحكم جغرافيتها

وبحكم إباء أهلها الاستكانة إلى السيطرة الأجنبية ، كما شاهدنا ذلك فى مقاومة الأمير عبد القادر الجزائرى لفرنسا ، ومقاومة أهل ليبيا للغزو الإيطالى ، ومقاومة الأمير عبد الكريم الخطابى للاستعمار الأسبانى .

والمنظور — بناء على ما تقدم — أن تخف وطأة الاستعمار الأجنبى فى تلك البلاد الشقيقة ، وأن ينتهى أمرها بقيام دول قومية فى أجزائها المختلفة . أما اجتماعها من حدود ليبيا إلى المحيط الأطلسى فى دولة موحدة ، ولمدة طويلة ، فيكون من قبيل الاستثناء ، لا من أثر البيئة الجغرافية .

الفصل السابع

انتشار الإسلام فى الصحراء الكبرى

والسودان الغربى والأوسط

كانت الصحراء الكبرى فى عصر الجليد تقع فى منطقة الرياح العكسية ، وكان يصيبها من المطر ما يكفى لإنشاء أنهار دائمة الجريان . فلما تقهقر الجليد إلى الشمال تقهقرت تبعاً له الرياح العكسية وحل محلها فى الصحراء الكبرى الرياح التجارية الشمالية الشرقية وهى هنا رياح جافة . ومن ثم عم الجفاف الصحراء حتى لقد تمضى الأعوام على بعض أجزائها دون أن يحظى بقطرة من المطر ، فلا عجب أن تبقى الصحراء الكبرى مرهوبة الجانب دهراً طويلا يتخيلها الإنسان مساكن للجن والشياطين ، ولا يخاطر عاقل بالتوغل فيها حتى بعد أن دخلت الخيل مصر ثم بلاد المغرب فى عصر الهكسوس (١٧٨٥ — ١٥٨٠ ق . م) . ولا ريب فى أن أول ما ينفر الناس من الصحراء خوفهم من الموت عطشاً .

ومن الطريف فى هذا الباب ما يقصه الطبرى عن سليمان عليه السلام حيث يقول : « كان سليمان بن داود إذا أراد سفراً قعد على سريره ووضعت الكراسى يميناً وشمالا . فيأذن للإنس ، ثم يأذن للجن ، فيكونون خلف الإنس ، ثم يأذن للشياطين فيكونون خلف الجن ، ثم يرسل إلى الطير

فتظلهم من فوقهم — ثم يرسل إلى الريح فتحملهم فتسير بهم ، غدوها شهر ورواحها شهر رخاء حيث أصاب . فبينما يسير إذ نزل مفازة فسأل عن بعد الماء ههنا فقال الإنس لا ندرى ، فسأل الجن فقالوا لا ندرى ، فسأل الشياطين فقالوا لا ندرى . فغضب سليمان فقال : لا أبرح حتى أعلم كم بعد مسافة الماء ههنا » .

فإذا كان هذا النبي الملك المتحكم فى الإنس والجن والشياطين والطير والرياح لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة فى الصحراء حتى يعلم قبل أن يتحرك للسير المسافة التى عليه أن يقطعها قبل أن يبلغ مورد ماء جديد فكيف بسائر الناس !

وقصة سليمان هذه تمثل الحقيقة الواقعة وهى ضرورة وجود الماء الصالح لشرب الإنسان والحيوان . ولما كانت موارد الماء فى الصحراء قليلة ومتباعدة لم يكن فى الطاقة المخاطرة باجتيازها مشياً على الأقدام أو على ظهور الخيل . فلما نقل الرومان الإبل من مراعى غرب آسيا إلى بلاد المغرب فى أوائل العصر المسيحى أصبح فى حدود المعقول استخدام سفينة الصحراء لارتياد أطرافها عساها تبلغ ماء قبل أن يهلكها الظمأ .

وخاطر أناس باقتحام الصحراء كما خاطر كولمبو باقتحام المحيط ، وكانت النتيجة فى الحالين خيراً وبركة على بنى الإنسان ؛ ذلك بأن الذين اقتحموا الصحراء لأول مرة صادفوا ماء أخذوا منه قدر ما يطيقون ، وبلغهم هذا الماء ماء ثانياً ، و بلغهم الماء الثانى ماء ثالثاً . وهكذا حتى تم لهم اجتياز الصحراء بعد تجارب شاقة — لعلها امتدت بهم مئات السنين .

وبالكشف عن موارد الماء فى الصحراء شمخت الإبل بأنوفها حين

أحست حاجة الناس إليها باعتبار كونها ـ دون سواها ـ القادرة على إطلاعهم على أسرار الصحراء وما تسكنه من واحات خصيبة ومرتفعات تجوذها أمطار فى بعض فصول العام فتنبت من كل زوج بهيج . هذا إلى ما هنالك من مناجم للملح كان الناس فى أمس الحاجة إليها ؛ ثم إماطة اللثام عما وراء الصحراء الكبرى من بلاد السودان الأوسط والغربى حيث المراعى النضرة والأرض الصالحة للزراعة والهجرة .

ولم يبالغ المؤرخ الفرنسى إذ عد الكشف عن أول واحة فى الصحراء الكبرى انقلاباً لا يقل عما أحدثه ابتكار االسكك الحديدية والسيارات والطائرات .

وإليك ـ على سبيل المثال ـ بعض طرق القوافل التى تخترق الصحراء وتربط مصر وبقية شمال أفريقية بالسودان .

١ — من أسيوط إلى الفاشر عاصمة دارفور .

٢ — من بنى غازى ـ ثغر برقة ـ عن طريق أوجلة وواحة كفرة إلى أبشّر عاصمة وداىْ ومن ثم إلى الفاشر .

٣ — من مدينة طرابلس الغرب عن طريق مرزوق ـ عاصمة فزان ـ إلى كوكا العاصمة التجارية لإقليم برنو ، ومن ثم إلى كانو مستودع السودان الأوسط ومقر صناعته وتجارته .

٤ — من طرابلس الغرب عن طريق غدامس إلى عين صالح فى واح توات .

٥ — من مدينة الجزائر عن طريق عين صالح والمبروك إلى تمبكتو .

٦ — من أغادر عن طريق تندوف وتودني وهي المركز الرئيسي لمناجم الملح في الصحراء إلى تمبكتو .

٧ — من تافللت عن طريق تودني وأروان إلى تمبكتو .

وما إن فتح العرب شمال أفريقية حتى اتخذت بعض قبائل البربر من هذه الطرق وسيلة للهجرة إلى السودان تستوطنه وتنشر الإسلام فيه . وأول من أسلم من أهل السودان مملكة السنغاى وذلك فى فجر القرن الخامس الهجرى وأوائل القرن الحادى عشر الميلادى إذ اعتنق ملكها وزعماؤها الإسلام ، وتقرر أن يكون اعتلاء العرش مقصوراً على المسلمين . ومن ذلك الحين صار ملك السنغاى وزعماؤها مدافعين عن الدين الحنيف حريصين على نشره .

ومن القبائل البربرية التى هاجرت إلى السودان أناس خالطوا السودانيين الزراع وصاهروهم ، ونشأ عن هذه المصاهرات جيل قوى عظم نفوذه فى السودان واشتهر منه جماعة سموا أنفسهم فُلبى وأطلق عليهم جيرانهم نحو مائة اسم أكثرها ذيوعاً فلا وفلانى .

وقبائل فلبى بعيدة الصوت فى السودان الأوسط ، يقيمون جماعات متفرقة فى حوض نهر النيجر الأعلى ، وينعمون بحياة رعوية فى سلم واطمئنان . ويرى بعض الباحثين أنهم أذكى القبائل الإفريقية . ومما زاد فى نفوذهم ظهور عالم ورع من بينهم يسمى الشيخ « عثمان دنفديو » أعجب بالدعوة الوهابية فعاب على السودانيين تعظيم الأولياء وشرب الخمر وفساد الأخلاق . وفى سنة ١٨٠٢ م حدثت ثورة فى مملكة وثنية مجاورة للفلبى كان من أغراضها وقف ازدياد نفوذ الفلبى فى أرجائها . فحز ذلك فى نفس عثمان ونادى بالجهاد فالتف

حوله جماعة من الفرسان . ولما كانت الأرض هنالك منبسطاً جد صالح لمناورة الخيالة ، انقض عثمان وجيشه على الوثنيين والمسلمين على السواء . فلم تمض إلا مدة يسيرة حتى انصلح حال المسلمين وأسلم الوثنيون . وبذلك ساد الدين الحنيف لأول مرة فى وسط أفريقية وفى غربها . وفى سنة ١٨٠٥ أنشئت مدينة سكوتو واتخذها عثمان عاصمة روحية ومدنية .

وتم له الاستيلاء على جميع أرض الحوصة قبل وفاته سنة ١٨١٦ ومد خلفاؤه من بعده سلطان الفلبى إلى « ادماوه » شرقاً وإلورن فى بلاد يوروبا غرباً ؛ واحتفظوا بهذه السيطرة طوال القرن التاسع عشر .

ولو لم يكن للفلبى فضل إلا نشر الإسلام وتوضيح معتقداته بين الحوصة لكفاهم ذلك فخراً : ذلك بأن الحوصة — كما يصفهم الرحالة والمبشرون — قوم تجار هادئون ينقلون سلعهم مسافات شاسعة ، وتمتد رحلاتهم من ساحل غانة إلى القاهرة . وبلغ من أثرهم أن صارت لغتهم اللغة التجارية لأهل السودان الغربى قاطبة . وبانتشار لغة الحوصة اتسعت دائرة الدعوة إلى الإسلام حتى شكا المبشرون المسيحيون من أن الإسلام يحل حيثما حل الحوصة .

وكان قيام الإدارة البريطانية سنة ١٩٠٠ فى نيجيريا فى مصلحة الدعوى إلى الإسلام ، إذ أصبح مسلمو الحوصة يستطيعون الاتصال بالقبائل الوثنية التى كانت إلى ذلك الحين تحرم تسرب المبادىء الإسلامية إلى مواطنها . وإلى جانب ذلك كان المسلمون يلزمون المدن الكبيرة المسورة ، فلما استتب الأمن بوجود البريطانيين سكنوا القرى إلى جوار مزارعهم فاتسع أمامهم ميدان نشر الدين .

وساعد تجنيد المسلمين فى نيجيريا على نشر دينهم لأن الجنود الوثنيين الجدد يعتنقون الإسلام فراراً من سخرية الناس منهم ، وحرصاً على اكتساب الاحترام الذى يتمتع به الجنود من المسلمين . وبهـــذه العوامل وأمثالها عم الإسلام نيجيريا الجنوبية .

وفى غضون القرن الرابع عشر الميلادى انتقل عرب التنجار من القسم الجنوبى من بلاد تونس وانتشروا فى برنو « وداى » وبلغوا دارفور : وأعجب ملك دارفور الوثنى برجل منهم يسمى أحمد فاتخذه مستشاراً ووفق أحمد إلى إدخال إصلاحات اجتماعية واقتصادية وإدارية حازت رضاء الملك والسـكان جميعاً فتعلق به الأهلون إلى حد حمل الملك على تزويجه من ابنته وتعيينه ولياً لعهده وملـكا لدارفور من بعده . فبقى عرب التنجار أصحاب النفوذ فى تلك البلاد إلى اليوم .

ولم يحل دون توغل هؤلاء العرب وأمثالهم إلى ما يلى تلك البلاد جنوباً إلا الغابات الاستوائية الرطبة التى لا تصح فيها أجسامهم ، ولله در عمر بن الخطاب إذ يقول : « لاتصلح العرب إلا حيث تصلح إبلهم » .

ولما أغار بنو هلال على بلاد المغرب فى القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى ، هاجر أناس من البربر إلى الصحراء والسودان فوجدوا المسلمين بحاجة إلى الإرشاد . فانبروا لهذه المهمة فلما لم يجدوا إقبالا ، اعتزل أحدهم وهو عبد الله بن يس فى جزيرة فى نهر السنغال وانقطع للعبادة وكثرة تلاميذه . فلما بلغوا ألفاً خرج بهم للجهاد سنة ١٠٤٢ م وسماهم المرابطين نسبة إلى الرباط وهى الخلوة التى اتخذها فى جزيرته بنهر السنغال فـكان ذلك أصل دولة المرابطين .

وكان انتصار المرابطين كافياً لإقناع قبائل الصحراء بأن الإسلام سبب انتصارهم فأقبلوا يعتنقون هذا الدين الكفيل بالنصر ، فاندفعت القبائل الوثنية إلى راية المرابطين باعتبار كونها تمثل الدين والقومية فى آن واحد .

وكان هؤلاء المتحمسون يختلطون بالسكان حيثما نزلوا ويصهرون إليهم ويقنعون أصهارهم باعتناق الإسلام ، وما يزالون يوسعون ميدان عملهم حتى يكثر أتباعهم فينشئون المساجد والمدارس ، ويعنون بتعليم أبناء الزعماء ويربونهم على الغيرة على الإسلام ، حتى إذا تزعموا قبائلهم استخدموا نفوذهم فى هداية هذه القبائل بأسرها إلى الدين الحق .

وكان من أثر ذلك إنشاء مدينة تمبكتو وهى على نحو ستة كيلومترات ونصف من نهر النيجر وتتصل به بقناة صالحة للملاحة أثناء الفيضان . وبهذا الموقع الموفق تدفقت عليها كل غلات المراعى والمزارع فى السودان الغربى إذ كانت ملتقى الطرق كما رأيت .

ومن ثم وجد التجار المسلمون فيها محطة متوسطة يسهل التنقل منها إلى جميع أنحاء السودان الغربى ونشر الإسلام فيه بحيث صارت تمبكتو العاصمة الدينية والتجارية فى تلك الأصقاع .

وزاد فى انتشار الإسلام خروج المسلمين من أسبانيا : ذلك بأن الذين طردهم الأسبان انطلقوا فى طرق قوافل الصحراء يطلبون أرضاً طيبة . فلما نزلوا السودان جنوا فيه ربحاً مادياً كبيراً ، وجنوا ربحاً أبقى منه هو نشر الإسلام بين زنوج ذلك الإقليم وكانوا إذ ذاك يأكلون لحم البشر ويتقربون لأوثانهم القربان من بنى الإنسان .

وحينما حلت هذة الجماعة الأسبانية ومن رافقها من أهل المغرب تجلت حماستهم لنشر الدين بين الشعوب التى أقاموا بين ظهرانيها ، ثم بين من جاورها من الشعوب الوثنية الأخرى .

واستولى هؤلاء الأسبان والمغاربة على تمبكتو وغيرها من بلاد المندنجو . وهاجر هؤلاء فنزلوا إلى الشمال من سيراليون وشرعوا ينشئون المدارس يعلمون فيها اللغة العربية والدين الإسلامى وما يرتبط بهما من الثقافة . وعنوا بنوع خاص بتعليم جيرانهم أن المسلم لايباع رقيقاً .

وتعترف الشركات البريطانية بأن دخول المندنجو إلى سيراليون رفع أهلها إلى درجة محمودة من الحضارة والاتحاد والأمن ، وأنه كان من نتائج مساعيهم زيادة سريعة فى عدد السكان ، وأن الذين تعلموا فى مدارس المندنجو يزدادون ثروة ونفوذاً فى الجهات المجاورة لهم ، وينشرون قدراً عظيما من تعاليم دينهم وقوانينهم المبينة على القرآن . وتختم إحدى هذه الشركات اعترافها هذا بالشكوى إلى البرلمان البريطانى بقولها : « يظهر أن دين الإسلام سوف يفشو فى كل هذه الأقاليم حتى يعم مستعمرة سيراليون » وينتشر مع الإسلام تلك المزايا التى تنصره على خرافات الزنوج . وقد أمر البرلمان البريطانى بطبع هذه الشكوى صفحة ٢ – ١٨٠ .

الفصل الثامن

انتشار الإسلام في شرق أفريقية

كان العرب من معين وسبأ وحمير على اتصال دائم بساحل أفريقية الشرقى ، وكانو يجلبون من تلك الأنحاء سلعاً مهمة لعل أعظمها قيمة الذهب والعاج والرقيق . وقد أثبتت البحوث الحديثة أن العرب أدركوا منذ تلك العصور القديمة أهمية موقع زنزبار فاتخذوها مخزناً لسلعهم ومنها توغلوا فى داخل القارة إلى البحيرات الكبرى . ويستدل علماء الأجناس من ملامح السكان فى إقليم بحيرة فكتوريا على أن توغل العرب فى تلك الناحية حدث من زمن بعيد .

وجاء الإسلام فزاد هذا الاتصال بفضل هجرات متتابعة أهمها أن قيام الدولة العباسية أدى إلى نفور بنى أمية ومن يتصلون بهم من الإقامة قريباً من العباسيين . ففر عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس . وآثر غيره انتجاع سقطرى بحيث يكون بعيداً عن متناول العباسيين . ولم يمض إلا زمن يسير حتى صارت هـذه الجزيرة سوقا تجارية هامة سرعان ما اتصلت بشرق أفريقية .

وتلا هذه الهجرة القرشية هجرة جاءت من جنوب بلاد العرب وأخرى من الجنوب الغربى لبلاد فارس وهاتان الهجرتان نزلتا بالساحل الشرقى من

أفريقية وتكونت على أثر نزولها سلطنات إسلامية صغيرة وعظم على أثر ذلك شأن مقدشو وممبسة وكلوة . وما زال النفوذ الإسلامى ينتشر حتى بلغ سُفاله قبيل إغارة البرتغال . وبقيت هذه المستعمرات العربية تقاتل البرتغال ما ينيف على ١٥٠ سنة . وانتهى هذا النضال بانتصار البرتغال بفضل سيادتهم االبحرية فى تلك الجهات .

وإذ ذاك أبى العرب الخضوع لهؤلاء الأوروبيين واحتمال استبدادهم وسوء إدارتهم ، فحمل كل منهم أهله وكل منقولاته واتجه إلى داخل القارة مؤثراً مواجهة الوحوش المفترسة والسكان المتربصين على احتمال الضيم .

واختلط هؤلاء المهاجرون بأهل البلاد وانتهز زعماء السكان وملوكهم وجود هؤلاء المتحضرين فى بلادهم فاتخذوا منهم مستشارين وإداريين كانوا دعاة للدين الإسلامى فى هدوء ورزانة فأضاءوا بذلك القارة المظلمة . وفى ذلك يقول السير توماس أرنولد : إن الشيخ المسلم يحيط به عدد من الأتباع أكثر ممن يحيطون بالمبشر المسيحى ؛ وذلك على الرغم من قلة مجهود المسلم .

أما البرتغاليون فسرعان ما نسوا أنهم كانوا دعاة المسيحية ، فانقلبوا حرباً على الأهلين وعاملوهم بالقسوة وعكفوا على تجارة الرقيق فانقضى عليهم قرنان من الزمان (سنة ١٥٠٣ — سنة ١٧٠٣) لم يعملوا شيئاً يذكر لمصلحة السكان ، كما يشهد بذلك الأوربيون أنفسهم إذ يقولون إنهم شجعوا تجارة الرقيق وأسرفوا فى تقتيل الأهلين ونشروا شرب الخمر وأخفقوا فى التبشير بالمسيحية

ولما ضعف شأن البرتغال انقض عليهم سلطان مسقط بين ١٧٣٠ و ١٩٤٠ فانتزع منهم جزيرة زنزبار والساحل المواجه لها وما يليه جنوبا إلى رأس دالفادو . ويشهد الأوربيون بأن عودة زنزبار إلى أيدى العرب جعلتها مفتاحا لداخل أفريقية ، على حد قول أحدهم : « مهما تكن وجهتك فى داخل البلاد فلا بد من الابتداء من زنزبار» وعبر العرب عن ذلك بقولهم : « عند ما تزمر فى زنزبار ترقص كل أفريقية إلى البحيرات الكبرى » .

وإذا كان بعض هؤلاء المسلمين قد أعماهم الشره فاشتغلوا بتجارة الرقيق . وبالتالى رغبوا عن نشر الإسلام لأنه يحرم بيع المسلم ، فقد وجد إلى جانب هؤلاء أناس متحمسون لدينهم ، جعلوا ينقذون الأهلين من الضلال بمزاملتهم بقصد تعديل طرق معيشتهم ، وتزوجوا منهم فرفعوا مستواهم الاجتماعى .

وتمكن بعض هؤلاء المتحمسين من الاتصال بملوك تلك البلاد وأقنعوهم باتباع الشريعة الغراء بعد أن كانوا يسايرون أهواءهم الجامحة .

فلما تنبهت أوربا إلى حاجتها لمستعمرات فى أفريقية وهبت تتنازع على اقتسامها فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أنشأ الإنجليز والألمان السكك الحديدية من دار السلام على الساحل إلى بحيرة تنجانيقا ومن ممبسة إلى السواحل الشرقية من بحيرة فكتوريا وبحيرة إبراهيم التى سميت بعد ذلك ببحيرة تشوجا . وكذلك عبدوا الطرق وسيروا البواخر فى الأنهار كلما أمكن ذلك . فاستغل العرب هذه الوسائل الحديثة للدخول فى قلب القارة واتخذ منهم الألمان والإنجليز معلمين وموظفين وشرطة وجنداً إذ وجدوهم أصلح لذلك من الأهلين . وبلغ من تفضيل الإنجليز فى كنيا المسلمين أن كانوا يوزعون

المصاحف على الأهلين ويقاومون التبشير المسيحى لأنه يفسد أخلاق السكان . وأيقن الأهلون أن الإنجليز يؤثرون المسلمين بالوظائف والكرامة فأقبلوا على الإسلام بحيث كانت قرى بأكملها تعتنقه فى يوم واحد .

وفى سنة ١٨٦٠ قرر الإنجليز فى نتال زراعة قصب السكر وبان لهم أنه لا يمكن استغلال مزارع القصب باستخدام عمال أوربيين بسبب ارتفاع أجورهم ، وأن العمال من أهل البلاد ليسوا من المهارة بحيث يقومون بهذه الزراعة ، وأنه لا يمكن تعليمهم هذه المهنة فقرروا استدعاء أناس من أهل الملايو وأهل الهند للنهوض بهذه الزراعة فى نتال ، يعملون بعقود لمدد محدودة ، على أن يعودوا لبلادهم عند انتهاء تلك العقود .

إلا أن هؤلاء العمال ما كادت تنتهى عقودهم حتى وجدوا أن من مصلحتهم البقاء بتلك البلاد فاستقروا بها على اعتبار أنهم مواطنون أحرار ؛ واحترفوا الأعمال التجارية والمهن الدقيقة وانتشروا فى اتحاد جنوب أفريقية وزاد عددهم أضعافاً مضاعفة مهجرات جديدة أكثرها من الهند وغيرها من دول آسيا .

وهؤلاء المسلمون نشروا دينهم بين السكان الأصليين ، ورحب هؤلاء السكان بهذا الدين ، فأصبح فى المدن الكبيرة وفى القرى جماعات مهمة من المسلمين لا تفتأ تنشر الدعوة الإسلامية فى تعقل وهدوء مما حمل المبشرين المسيحيين على الشكوى منهم . وعبر عن ذلك المبشر الأمريكى زويمر بقوله : « إن مدينة الرأس بها مالا يقل عن ٢٣ مسجداً ، وإن الكتب الإسلامية ترجمت إلى لغة الزولو وغيرها من لغات السكان الأصليين . »

الفصل التاسع

فتح المسلمين لبلاد الأندلس[1]

رأينا أن شبه جزيرة إيبيريا كانت فى غابر الأزمان متصلة اتصالا تاماً ببلاد المغرب ، وأن جبال الأطلس فى بلاد الريف كانت هى وسييرا نفادا[2] سلسلة واحدة قبل أن يجرى الماء بين المحيط الأطلنطى والبحر الأبيض المتوسط فى المضيق الذى كان يعرف قديماً باسم بحر الزقاق ، والذى يسمى الآن مضيق جبل طارق ، وهو مضيق قليل العمق كما علمت .

وما يزال جبل طارق فى أسبانيا وجبل موسى فى الريف يكاد كل منهما يمد يده عبر المضيق تكريماً لتلك الصلة التى كانت تربطهما منذ حقبة لا تعد قديمة بالقياس إلى التاريخ الجيولوجى .

ويقص علينا الأمير شكيب أرسلان ما عاينه من أن شكل الأرض فى الجزيرة الخضراء وطنجة وجبل موسى وسبتة واحد ، وأن المضيق لم ينزع من

(١) هذا هو الاسم العربى لشبه جزيرة إيبيريا ولم يسمع عن أحد قبلهم . وأصله غير معروف ، وربما كانت هناك صلة بينه وبين قبيلة الوندال — ويسميهم ابن خلدون القندلس — التى أقامت بالقسم الجنوبى من هذه البلاد نحو عشرين سنة . ولما انحصر نفوذ العرب فى مملكة غرناطة اقتصر اسم الأندلس عليها .

(٢) أسماه العرب جبل الثلج أو جبل شلير . ومعنى نفادا فى الأسبانية تلوج هطالة . وأعلى قمة فيه مولاى حسن وتبلغ ٣٥٠٠ متر وكلمة سييرا فى اللغة الأسبانية معناها المنشار وسموا به سلسلة الجبال لأنها تشبه فى تعاقبها أسنان المنشار . وقد نطق بها عرب أسبانيا شارة وجمعوها على شارات ،

كل من الشطرين وحدته الطبيعية مع الآخر ، ويحدثنا بما سمعه من وجود نوع من القردة قديم يسكن فى برية جبل طارق وجبل موسى على السواء ، وأنه لا وجود لهذا النوع فى غير هذين الموضعين .

وهذا الاتصال الطبيعى بين شبه جزيرة إيبيريا وإفريقية يقابله انفصالها عن بقية أوربا انفصالا يكاد يكون تاماً ، وذلك بقيام حاجز منيع هو جبال البرانس (١) .

وهذه الجبال تمتد بين فرنسا وأسبانيا من ساحل البحر المتوسط إلى ساحل المحيط الأطلنطى ، ويبلغ عرضها ١٤٥ كيلو مترا وتسمو بعض قممها إلى ٣٤٠٠ متر . ولا يكاد يضير هذا الانفصال وجود شعاب (ممرات) عبر تلك الجبال هى عبارة عن تقابل الوديان التى تنحدر من أعاليها إلى الشمال وإلى الجنوب . ويسمى كل ممر من الممرات التى فى القسم الأوسط بورت بمعنى باب (٢)

وهذه الممرات الوسطى أشد وعورة من مثيلاتها الواقعة فى طرفى السلسلة . على أنه حتى هذه الممرات الجانبية تتيح للمدافعين عن أسبانيا فرصاً للايقاع بأعدائهم . ومن ذلك أن شرلمان دخل أسبانيا سنة ١٦١ هـ — ٧٧٨ م يريد القضاء على دولة بنى أمية فيها . فلما منى بالفشل واضطر أن يعود أدراجه اختار ممراً قريباً من النهاية الغربية لجبال البرت يسمى رونسفال Roncesvalles ويسميه العرب باب الشزرى .

(١) هذه التسمية مأخوذة من Pirineos ومن أسمائها عند العرب الحاجز .
(٢) من هذه التسمية سمى العرب جبال البرانس بجبال البرت وجمعوها على برتات مع علمهم بأن معناها أبواب وأن المراد حلوق الجبال .

وهنالك حيث الجبال والغابات صمم مسيحيو مقاطعة باسك — ويدعوهم العرب البشكنس — على الانتقام من أعدائهم الإفرنج ؛ فوضعوا لهم كميناً فى أغوار الجبال ، وانتظروا حتى إذا مرت مقدمة الجيش ، انقضوا على المؤخرة — وكانت بطيئة السير محملة بالأثقال — فاستأصلوا رجالها .

ومما يدل على ثبات العوامل الجغرافية أن هذا الممر بذاته هو الذى سيسلكه العرب حين يريدون غزو فرنسا لأول مرة وهو بعينه الذى سلكه الجيش الإنجليزى الذى تعقب قواد نابليون سنة ١٨١٣ .

وبسبب هذا الانفصال عن بقية أوربا كانت إيبيريا أكثر اتصالا ببلاد المغرب منها بأوربا فى الجنس والتاريخ : أما الجنس فإن أقدم من عرف من سكانها قوم من الجنس الحامى يسمون الإيبيريين يشبهون البربر سكان بلاد المغرب فى كثير من صفاتهم الجثمانية وفى عاداتهم وتقاليدهم . وأما فى التاريخ فقد تقدم لك أن من ملك إحدى ضفتى مضيق جبل طارق لا بد أن يحاول امتلاك الضفة الأخرى .

وأهم ميزة فى سطح إيبيريا بعد جبال البرت وسيرا نفادا إنما هى الهضبة الوسطى المعروفة باسم مسيتا Meseta وتشغل أكثر من نصف المساحة ؛ ويتراوح ارتفاعها عن سطح البحر من ٦٠٠ متر إلى ٩٠٠ وتكاد الجبال تحف بها من جميع نواحيها : فإلى الشمال منها توجد جبال كنتبريان وهى امتداد لجبال البرت ما زالت مغربا حتى الزاوية الشمالية الغربية من شبه الجزيرة مخترقا إقليم أشتورش (استورياس) وإقليم جليقية (جاليسيا) حيث يلتوى إلى الجنوب فيصل إلى نهر دورو وبذلك يغلق السهل الساحلى الغربى من ناحيته الشمالية .

ويلى ذلك سلاسل أخرى لاصقة بالهضبة من ناحية الغرب وفاصلة بينها

و بين السهل الساحلى الغربى . وما تبرح تستطيل حتى تتصل بسييرا مورينا التى تفصل الهضبة عن سهل الأندلس ، والتى يجىء بعدها سلاسل جبال مرسية وغيرها فتحول بين الهضبة و بين السهول الساحلية المعروفة باسم مرسية و بلنسية وقطلونية (كتالونيا) وحوض نهر إبره (إبرو) .

ولم تكتف الهضبة ، بعد ارتفاعها عن السهول وعزلتها عنها ، بأن تبقى مستوية السطح فتكون بذلك على نسق واحد ، بل سمحت لسلسلتين من الجبال أن تجعلا منها ثلاثة أقسام . فأما السلسلة الأولى فسييرا جوادراما[1] . وهذه الجبال تسير من وادى إبْرُه فى اتجاه جنوبى غربى إلى أن تبلغ ساحل المحيط الأطلنطى وتعزل قسما كبيراً من الهضبة ناحية الشمال . وأما السلسلة الأخرى التى تخترق الهضبة فأشهر أسمائها جبال طليطلة .

ومن هذا يتضح لك أن شبه جزيرة إيبيريا منعزلة عن غيرها بسبب إحاطة الماء وجبال البرت بها ، وأنها بذلك إقليم جغرافى متميز عما سواه كل التميز . فكان المنتظر أن تصلح لجمع شمل الشعب الذى ينزل بها ؛ لكن هذه الوحدة قد حال دونها توزع السطح بين هضبة عالية مسورة بالجبال ومنقسمة على نفسها ، و بين سهول ووديان عديدة تفصلها سلاسل جبال تعوق الاتصال وتبادل السلع والأفكار ، وليس بها موقع متوسط كموقع القاهرة والخرطوم تصله الطرق الطبيعية بأنحاء القطر المختلفة وتلتقى فيه مصالح الشعب وثقافته .

وبسبب انعزال أجزاء ايبيريا بعضها عن بعض عاش أهلها من أول الأمر عيشة القبائل المتفرقة وباعدت العصبية القبلية بين هذه المجموعات . ولم يخفف

---

(١) يسميها العرب وادى الرملة ويطلقون عليها اسم جبال الشارة .

من أثر هذا التباعد نزول شعوب أخرى كالفينيقيين والإغريق والقرطاجنيين ، لأن هؤلاء المستعمرين اكتفوا باقتطاع جزء من البلاد استقروا فيه حيناً ثم جلوا عنه دون أن يفكروا في جمع شمل الشعب . فبقى السكان وحدات صغيرة شأنهم في ذلك شأن البربر والإغريق القدماء .

فلما تمكن الرومان من طرد القرطاجنيين من أسبانيا سنة ٢٠٦ ق . م . بذلوا جهود الجبابرة لتوحيد أجزاء إيبيريا ، فقاومهم أهلها طوال قرنين من الزمان وأظهرت الوحدات المحلية ضروبا نادرة من البطولة في الدفاع عن أوطانها الخاصة وعزتها المحدودة ، وكان من الطبيعي أن تجيء أشد المقاومة من أهل الشمال والشمال الغربي حيث جبال البرت وجبال كنتبريان وحيث الغابات الكثيفة والبرد القارس ، وحيث يقيم من قديم الزمان البشكنس (الباسك) وأهل اشتورش والجلالقة (سكان جاليسيا) .

ولم يكن نضال مئتى عام كافياً لإخضاع هذه القبائل الشديدة المراس ، فلم يجد الرومان بداً من نقل كثير منهم من هذه المواطن الوعرة إلى السهول الساحلية في الجنوب الشرقي .

وظهرت هذه الوطنية المحلية بعد ذلك بثمانية عشر قرنا حين صمم نابليون على امتلاك إيبيريا ، فدخل أسبانيا سنة ١٨٠٧ وحشد فيها أكثر من مائة ألف من خيرة جنوده يقودهم عباقرة الحرب من قواده ، وحضر هو بنفسه يستنهض الهمم .

في تلك الآونة أحس أهل أسبانيا أن من العار خضوعهم للأجنبي ، فثارت الوحدات المحلية بالعدو . وكان أولها ثورة عليه أهل اشتورش أولئك

الذين شنت الرومان أسلافهم فطبعتهم البيئة على غرار هؤلاء الأسلاف . وحاكت وحدات أخرى اشتورش وجملت جماعات المتطوعين من كل وحدة تنقض على الفرق الفرنسية فى الوديان كما لاحت الفرصة يقتلون ويسلبون ويقطعون خطوط المواصلات ، فإذا تكاثر عليهم العدو أسرعوا إلى قنن الجبال حيث لا يستطيع الجيش الفرنسى تعقبهم .

ومع أن نابليون ورجاله أتوا بالعجب العجاب فقد عجزوا عن قهر هذه الجماعات حتى عد المؤرخون أن ثورتها كانت من أكبر عوامل سقوط نابليون .

ولا تزال العوامل الجغرافية إلى يومنا هذا تعمل على تفريق أهل إيبيريا ؛ ومن ذلك أن انعزال السهل الساحلى الغربى عن الهضبة الوسطى وعن جليقية كما رأيت أدى إلى قيام دولة منفصلة فى هذا السهل هى دولة البرتغال . وساعد على هذا الانفصال أن نهر دورو ونهر تاجه عندما يهبطان من الهضبة يجريان فى السهل ، على صـــــورة خانقين عميقين لا يصلحان أداة اتصال بين السهل والهضبة .

وزاد هذا الانفصال توكيداً أن الطرق الطبيعية فى السهل لا تسير من الشرق إلى الغرب ، بل هى على العكس تمتد من الشمال ومن الجنوب وتتجمع حول لشبونة . ولهذا السبب ، ولوقوع هذه المدينة على مصب نهر تاجه وهو مصب يتسع — كما يقولون — لإيواء أساطيل أوربا كلها ، اتخذ البرتغاليون لشبونة عاصمة لبلادهم .

وباستقلال هـذه الدولة عن بقية ايبيريا ، استطاعت أن تعمل لحسابها الخاص ، فانتزعت بقية السهل من أيدى العرب ، واستغلت موقعها البحرى

وثغورها الجيدة فى إنشاء أسطول لم تقنع منه بالدفاع عن نفسها ، بل استخدمته فى الاستيلاء على سبتة سنة ١٤١٥ أى قبل خروج المسلمين من أسبانيا بسبعة وسبعين عاما .

وبهذا الأسطول بدأت سلسلة الرحلات الكشفية التى كان القصد الأول منها تطويق المسلمين ، والتى حققت آخر الأمر ، ما يقرب من هذا القصد بوصول فاسكودى جاما إلى الهند سنة ١٤٩٨ ، وما نشأ عن ذلك من القضاء على تجارة المسلمين من مصريين وعرب ، ثم محاولة بعض البرتغاليين التحكم فى الحرمين الشريفين .

ومن أثر البيئة فى حياة أسبانيا أن الأسبانى من أهل قشتالة مثلا يكاد يعد الأسبانى من أهل الأندلس أجنبياً عنه ؛ ومنه أن بأسبانيا اليوم ٥٠٠٠ قرية لا توجد مسالك طبيعية يمكن تسميتها طرقاً تصل إحداها بالأخرى أو تصلها ببقية البلاد .

ومن أثر البيئة أن السكان لا حظوا أن الرياح الغربية إذا هبت على الهضبة أسقطت أمطارها على سفوحها الغربية ولم يصل إلى وسطها من المطر إلا القليل ، وأنها بذلك لا تنعم بمناخ غرب أوربا ولا بمناخ البحر المتوسط ، بل تقاسى مناخا قاريا شديد الحر فى الصيف قارس البرد فى الشتاء وأنها بالتالى قاحلة فى الجملة يتجرد قسم منها من النبات . ومن أجل ذلك هجروها ، وبنوا المدن على السواحل الشرقية وفى السهول المجاورة لها ، وهى أقاليم تتمتع بربيع يكاد يستمر طول السنة . وآثروا الجنوب كذلك لأنه رغم تعرضه للرياح الحارة التى تهب من أفريقية ، مزدهر كثير المياه صالح للزراعة . ولا حظ

الأسبان أن هذه المدن بعيدة عن التوسط فى بلادهم ، بحيث لا تصلح واحدة منها أن تكون عاصمة ، واضطروا إلى اختيار مكان يتوسط البلاد ولو كان على الهضبة الباردة القليلة الماء القاحل أكثرها ، وآثروا أخف الأضرار باختيار مجريط (مدريد) ، لوقوعها فى مفترق الدروب التى تخترق جبال وادى الرملة (جوادراما) .

وبعد هذا التمهيد الذى يدل على أن الطبيعة بعثرت إيبيريا لنشوء وحدات منعزلة يعيش أهل كل منها كما تعيش القبيلة ، وبخاصة من حيث الاعتماد على رجالها فى الدفاع عن كيانها ، والتفانى فى الذود عن استقلالها — نعجب للسهولة التى بها استولى المسلمون من عرب وبربر على هذه البلاد : لكن هذا العجب يتلاشى إذا علمنا أن الحواجز الطبيعية المنبثة فيها ، من شأنها أن تجعل التوغل فيها صعباً ، وأن تهيء للمدافعين عنها فرصاً كثيرة ، ولكنها لا تدفع بنفسها جيشاً يتحرق شوقاً للفوز بخير الدنيا والآخرة .

أما لماذا لم يستغل أهل إيبيريا بيئتهم فى وجه المسلمين كما استغلوها فى وجه الرومان من قبل ، وفى وجه شرلمان ونابليون من بعد ، فمرده إلى أسباب كثيرة أهمها ما يأتى :

أولا — أن القوط حين كانوا شعباً محاربا دخلوا شبه الجزيرة وطردوا منها الوندال والروم واستقلوا بها منذ سنة ٤٨٤ م ، وبقيت فى يدهم أكثر من مائتى عام . وكان يرجى منهم ، وقد تنصروا ، أن يصلحوا ما فسد من أمرها . لكنهم لم يمتزجوا بالسكان الأصليين بحيث يصيرون وإياهم شعباً واحداً ، بل عاشوا فئة قائمة بذاتها منها الملك وجميع أشراف المملكة ، واختصوا أنفسهم

بامتلاك الضياع الواسعة ، وحرموا المصاهرة بينهم وبين الأهلين ، كأنما كانوا من طينة غير طينتهم وكأنما كانوا حامية عسكرية فى بلد أجنبي .

وكان يجب عليهم — والحالة هذه — أن يحتفظوا بحيويتهم ، وأن يقضوا فراغهم فى التدرب على فنون القتال كى يستطيعوا إخضاع ثورة داخلية إن حدثت ، أو يردوا عدواً إن تجرأ أحد على مغالبتهم ؛ ولكنهم سرعان ما نسوا مهنة القتال الشريفة . وانغمسوا فى الترف والشهوات الدنيئة ، وعولوا على الأهلين فى تزويدهم بكل ما يلزم لهذه الشهوات وذلك الترف .

وكان الشعب من تحتهم طائفتين منفصلتين ، إحداهما طائفة العبيد وأحلاس الأرض أو قل أرقاء الضياع . وكان للسيد على العبد حق الحياة والموت بمعنى أن القانون والعرف لايمنعانه من قتله متى شاء ، ولا من تعذيبه بما يريد . وكان أحلاس الأرض يلزمون ضيعة سيدهم يزرعونها مسخرين لا يفارقونها حياتهم وينتقلون معها من مالك إلى مالك . ولم يكتف منهم السادة القوط بذلك بل حتموا عليهم ألا يتزوجوا إلا برضاء السيد ، وأنهم إذا أصهروا من ضيعة أخرى قسمت ذريتهم بين صاحبي الضيعتين .

والطائفة الثانية كانت تسمى الطبقة المتوسطة وأفرادها سكان المـــدن الأحرار . وقد لاقت هذه الطبقة من ضنك العيش ما كان شراً مما يلاقيه العبيد : ذلك بأن عبء الضرائب كان يقع عليهم فهم الذين يدفعون الأموال ليبعثرها الأغنياء فى لذائذهم .

وزاد الحال سوءاً أن رجال الدين الذين كان يرجى منهم الأخذ بيد الضعفاء على نحو يقربهم من خطة المسيح عليه السلام ، انتهزوا فرصة تنصر

القوط وانصياعهم للكنيسة وأوغلوا فى السيطرة على أمور الدين والدنيا ، واقتنوا الضياع الواسعة ، وصمموا على إعفائها من الضرائب أسوة بضياع الأشراف وأرهقوا عبيدهم وأحلاس أراضيهم بالعمل ، وأمعنوا فى القسوة عليهم .

ولما عظمت ثروتهم وتضاعف نفوذهم تطلعوا إلى السيطرة على سياسة الدولة حتى غلب نفوذهم على نفوذ الأشراف وصار أكثر الأمر والنهى إليهم . وظهر ذلك فى اضطهاد اليهود — وكانوا فئة كبيرة العدد موفورة النشاط — وحاولت الكنيسة تنصيرهم بالعنف والمطاردة ، وخيرهم الملوك بين التنصر والنفى والمصادرة ، فاعتنق النصرانية كثير منهم كرها ورياء ، ثم توالت عليهم المحن فلجئوا إلى التآمر مع بنى جنسهم فى بلاد المغرب ودبروا الثورة ، وذلك قبل الفتح الإسلامى بسبع عشرة سنة فقط . فلما كشف عن المؤامرة سنة ٦٩٤م تقرر نزع أملاكهم جميعها وتسليمها إلى العرش ، كما تقرر أن يهبهم الملك عبيداً لمن شاء ، وأن يربى أبناؤهم منذ السابعة على النصرانية ، وألا تتزوج يهودية إلا بنصرانى .

على مثل هذه الحال كان الناس فى الأندلس قبيل الفتح الإسلامى . وكان يحكمهم الملك غيطشه(١) . وقد اشتهر أول الأمر بحسن السيرة ، ولكنه رأى أن نفوذ الأشراف ورجال الدين قد أفسد السياسة ، وحاول التخفيض من هذا النفوذ فثاروا عليه أكثر من مرة ، ونجح هو فى إخماد ثوراتهم وهدم كثيراً من حصونهم ليجردهم من وسائل العصيان . فلم يزدهم ذلك إلا عنادا

(١) هذه هى التسمية العربية ، واسمه الأصلى وتيزا .

والتفوا حول زعيم يسمى لذريق[1] ، ولما كثر أتباعه نادى بنفسه ملكا .

واشتعلت الحرب الأهلية بين الفريقين ووجد غيطشه وأولاده من بعده أعوانا يناصرونهم . وفى هؤلاء الأعوان أخو غيطشه وكان على رأس الكنيسة باعتباره أسقف طليطلة .

فلما انتصر لذريق بحث خصومه عن حلفاء وعولوا فى ذلك على الكونت يوليان حاكم سبتة ، وكان غيطشه يعتمد عليه فى حفظ هذا الحصن الحصين ويمده بأشجع جنده ، وانحاز يوليان إليهم بكل قلبه ، فزار موسى بن نصير الذى طالما اشتبكت سيوفه بسيوفه ، فأخبره أنهما منذ اليوم صديقان حميان ، وكشف له عن اضطراب بلاد الأندلس وتفرق أهلها شيعا .

واستأذن موسى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك فنصح له بالحذر والتروى . وعلى أساس هذه النصيحة أرسل موسى ٥٠٠ رجل بقيادة طريف ابن مالك أبحروا على أربع سفن ليوليان للإغارة على الأندلس . وملأ نجاح طريف قلب موسى ثقة بالنصر . وجاءت التضاريس فأتاحت له الفرصة إذ ثار البشكنس — الذين قاوموا الرومان من قبل ، وقاوموا شر لسان ونابليون من بعد — ثار هؤلاء الجبليون الأشداء فى وجه لذريق فاضطروه إلى الذهاب إلى أقصى شمال البلاد للقضاء على ثورتهم .

واهتبل موسى الفرصة وأرسل طارق بن زياد البربرى سنة ٩٢ هـ — ٧١١ م . وأرسى طارق سفنه عند الصخرة التى حملت اسمه منذ ذلك الحين ، فدعيت جبل طارق . ثم استولى على هذه الصخرة وحصنها تحصينا منيعا ضمانا

---

(١) يسميه العرب لذريق واسمه الأصلى رودريك .

لاتصاله بأفريقية ، وتقدم يختبر حال البلاد ، وجاء لذريق على عجل والتقى الجيشان على نهر سماه بعض مؤرخى المسلمين وادى بكة وسماه الأكثرون وادى لكة[1] قرب مدينة شريش .

وكان جيش المسلمين إذ ذاك قد بلغ ١٢٠٠٠ يواجهم لذريق بستة أمثال هذا العدد من خليط العبيد والأحلاس وأوساط الناس .

وكان بين قوادهم الخونة من الأشراف وعلى رأسهم ابنا غيطشه وأخوه أسقف طليطلة وقد ظن هؤلاء الخونة واهمين أن المسلمين لم يقصدوا إلا إلى النهب والغنيمة ، وأنهم متى امتلأت أيديهم بالأسلاب عادوا إلى أفريقية . وشجعهم موسى على الاستمساك بهذا الوهم ، ومناهم بعودة عرش الأندلس إلى سلالة غيطشه .

يقابل هذه الجموع المتنافرة المتخاذلة المتحاسدة جيش وطد نفسه على نيل إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، يقوده بطل قلما تلد الأمهات مثله . ودارت المعركة سبعة أيام ويقول دوزى : « لا ريب أن شبه الأرقاء كانوا فى الجيش أكثر بكثير من الأحرار ، ومعنى هذا أن الدفاع عن الدولة كان موكولا إلى أناس يؤثرون ممالأة العدو على الذود عن ظالميهم » . وكان يوليان والأسقف — وهما فى صف المسلمين — يستميلان كثيراً من جند القوط ، ويشيعان التفرق والشقاق بينهم .

وانتهت المعركة بانتصار طارق واختفى لذريق فلم يعرف مصيره وأكثر الظن أنه غرق وحمل النهر جثته إلى المحيط .

ويقول مؤرخ إنجليزى . « ليس فى تاريخ العالم نصر أتم من النصر

(١) واسمه الحقيقى جواد ليت Guadelete

الذى أحرزه طارق على شواطىء نهر لكة ، لأن نتائجة لم تكن قاصرة على ميدان القتال ، بل ثبتت سلطان الخليفة — وهو فى دمشق — على شبه الجزيرة بأكملها ، ولم تكن هناك حاجة لضربة أخرى كى تفصل هذا العضو المهم عن جسم المسيحية ، وكسب هذه الجائزة الثمينة للهلال . وبلغ من أثرها أن اعتبرها الأتقياء من مؤرخى الأسبان تدخلا مباشراً من السماء ، وانتقاماً إلهياً جلبته كثرة الخطايا الشنيعة التى اقترفها ملوك القوط كما جلبها إعراض الناس عن الكنيسة : ذلك بأن القوط على ما يظهر فقدوا كل أمل فى المقاومة بعد ذلك ، فجرى فيض الإسلام كأنه الطوفان وسلمت مدينة بعد أخرى دون أن يسل سيف وفى مدى عامين بلغ جيش موسى — وهو ما يزال قليل العدد — سفوح البرانس » .

وهنالك تعود البيئة إلى إملاء إرادتها إذ تضطر طرقا إلى إرسال ثلاث فرق تقصد كل فرقة إلى ناحية معينة ، ويتجلى ذلك فى مدافعة الكونت تيودمير عن ممرات جبال مرسية حتى اضطر إلى التسليم . أما جمهور الجيش فسار بقيادة طارق وإرشاد يوليان والأسقف إلى عاصمة القوط وهى طليطلة ، وكان القوط قد فروا منها نحو الشمال بأموالهم وآثار قديسيهم فاستولى طارق عليها واختار لحكمها أسقفها السابق وهو أخو الملك غيطشه . وسار شمالا فى وهاد ومفاوز صعبة يطارد بقية القوط فى أقصى اشتورش وجليقية حيث اعتصموا بجبالها الشامخة المعرضة للرياح الهوج والأمطار الهطالة والمكسوة بالغابات الكثيفة .

وأحس موسى بن نصير أن طارقا يوشك أن يعرض المسلمين لخطر محقق

فكتب إليه أن ينتظر لحاقه به ، على أن موسى وجد أن الحيطة العسكرية تقتضيه ألا يقصد إلى طارق رأساً ، بل إنهـا لتحتم عليه إخضاع المعاقل التى تركها طارق خلفه بدافع الرغبة فى ملاحقة فلول القوط . ومن أجل ذلك قصد موسى إلى قرمونة وهى يومذاك من أمنع معاقل الأندلس ، فاستولى عليها بمعاونة يوليان وأصحابه . ثم افتتح غيرها من المدن التى لا نريد أن نثقل عليك بذكرها وبحسبك أن تعرف أنه حاصر بعضها شهراً ، وأنه فقد عدداً كبيراً من جيشه فى الاستيلاء على بعضها الآخر .

وبعد أن اطمأن إلى أنه لم يعد يخشى المفاجأة أو قطع مواصلاته يمم طليطلة حيث قابل طارقاً ، وعتب عليه إسراعه إلى الشمال قبل القضاء على كل مقاومة فى الجنوب . ثم اتفق الاثنان على الخطة المثلى لفتح بقية البلاد ، وأهم ما قام به موسى اجتياز جبال البرت(١) وفتح جزء من أرض فرنسا الحالية كان تابعاً للقوط ، على نحو ما فعله عمرو بن العاص حين فتح برقة عقب الفراغ من فتح مصر باعتبار أن برقة كانت إذ ذاك تابعة لمصر .

أما طارق فتوجه إلى أشتورش وجليقية حيث اعتصم الفدائيون من القوط وطال تعقبهم فى تلك المخابىء الوعرة حتى اضطر موسى أن يعود لمعاونته ، واستولى القائدان على أكثر معاقلها . فلما لم يبق إلا طرفها الشمالى الأقصى جاءه كتاب الخليفة للمرة الثانية بأن يقفل راجعاً هو وطارق إلى دمشق . وإذا أنت أمعنت النظر فى الظروف التى عبر فيها موسى إلى الأندلس وقدرت

(١) كان اجتيازه عن طريق ممر رونسيسفال Roncesvalles السالف الذكر وهو الذى يسميه العرب باب الشزرى .

الأعمال الجليلة التى قام بها تبين لك أن وجوده فى تلك البلاد ومعه ١٨٠٠٠ جندى كان ضرورة حربية ولم يكن حسداً لطارق . وقد أحسن الأستاذ على الجارم عليه رحمة الله إذ رجح أن قصة الحسد من وضع العباسيين .

أما هؤلاء الفدائيون من القوط الذين امتنعوا فى أشتورش فإنهم استغلوا البيئة الجبلية الباردة المطيرة الكثيفة الغابات التى لا يصلح العرب فيها ، شأنها فى ذلك شأن جبال طوروس والقسم الشمالى الشرقى من تركستان والتِّبت وما إلى ذلك .

وهذه البيئة هى التى أتاحت لعشاق الحرية فى كل عصر أن يمتنعوا على أعدائهم فقد كانت موطن المقاومة للقرطاجنيين والرومان والقوط ثم صارت موطن المقاومة للمسلمين . ولا عجب فقد وصف الشاعر الرومانى ساكنيها بأنهم لا يخضعون لبرد ولا لحر ولا لقحط ، وأنهم قوم لا يطيقون الحياة بغير قتال . وفى هذا المعتصم الأمين أقام رجال أحرار ومعهم آثار القديسين وكتب الشريعة المسيحية وملابس الكنيسة وأدواتها وما إلى ذلك مما أذكى فى نفوسهم نار الوطنية ، وهنا اختلط القوط اللاجئون بالسكان الأصليين بحكم البيئة ، لأن وديان اشتورش الضيقة لم تكن تتسع إلا لشعب واحد ، فكان من حكم الطبيعة أن يعيش السكان على قدم المساواة ، وأن ينسو تلك الفوارق المرتبطة بالثروة الواسعة والأصل العريق ، واختار الشعب الوليد بملء الحرية زعيما رأوه أهلا لحمل هذا العبء الشريف ، وهذا الزعيم هو بلاى Pelagius .

واختار بلاى معتصمه بين الجبل والبحر ، فلما عبر المسلمون الجبل سنة ٧١٨ وأشرفوا على خنادقه قابلهم أصحابه بوابل من الحجارة أحدث بينهم

اضطراباً ثم انقضوا فهزموهم . ومما يشير إلى أهمية هذا الانتصار فى تاريخ أسبانيا أن مؤرخيها يقولون إن رجال بلاى كانوا ثلاثين ، وأنه قتل من العرب ١٢٤٠٠٠ فيهم قائدهم ، وغرق منهم ٦٣٠٠٠ وفر منهم إلى فرنسا ٣٧٥٠٠٠ كلهم اختفوا ولم يعرف عنهم خبر .

وإلى هذا المعتصم هاجر كل من خسر بدخول المسلمين ، وكل من أبغض الإسلام ، وكل من تطلع إلى بعث جديد . ولم يمض على انتصار بلاى أربعون سنة حتى كان القسم الجبلى الذى يلى الهضبة شمالا فى يد النصارى ، وحتى كان المسلمون قد تجمعوا فى الأقاليم الشرقية والجنوبية الدفيئة ولم يتجاوزوا سلسلة جبال وادى الرملة شمالا .

أما ما يقع خلف ذلك إلى الشمال ، وهو جزء الهضبة القارس البرد والقاحل أكثره ، فاكتفوا فيه بحاميات قليلة ومن ثم كان موضع نزاع بينهم وبين النصارى طيلة ثلاثة القرون الأولى التى أعقبت الفتح : ذلك بأن العوامل الجغرافية التى لحنا أثرها فى تفريق السكان جماعات منعزلة عادت فأحدثت أثرها بمجرد خروج جماعة بلاى من ملجئها الأول فى اشتورش وتوزعها فى الوديان المختلفة واختلاط كل فريق منهم بأهل الوادى الذى نزلوه فبعد أن كانوا كتلة متضامنة متحمسة للدين والوطن صارو جماعات أو قل قبائل بل شعوبا متطاحنة متقاتلة على حد قول أحد المؤرخين الإنجليز :

« أصبح واجب تخليص أسبانيا ثانويا بالنسبة للأطماع الشخصية ، وبالنسبة لرغبة كل أمير فى تحطيم من سواه من الأمراء : ملك يحارب ملكا ، وقشتالة

(كستيل) تقاتل أرغون ، وأرغون تحارب نبره (نفارة) ، والبرتغال تقاتل واحدة أو أكثر من بقية الأمارات ، ولم يكن ملك ليستطيع أن يغيب طويلا عن ملكه خوفاً من أخيه الملك المسيحى . ولا يتحد ملكان مسيحيان أو أكثر إلا بقصد اقتسام الغنيمة . ومن أجل ذلك لم تحدث حرب صليبية جديرة بالاسم إلا بعد اتحاد أرغون وقشتالة سنة ١٤٧٦ حين اعتلى فرديناند عرش أرغون وكان قد تزوج من إيزابلا ملكة قشتالة . أى بعد دخول العرب إلى الأندلس بنحو ٧٦٨ عاما . وتصادف أن كان الزوجان متفقين فى شدة البغض للمسلمين فصمما على طردهم نهائياً من أسبانيا .

ولم يكن المسلمون بمنجاة من العوامل الجغرافية ، بل لقد فرقتهم هذه العوامل كما فرقت أعداءهم . ويكفى للتدليل على ذلك مجرد ذكر أسماء الأمارات والممالك الإسلامية التى تنازعت على ما بقى للمسلمين فى تلك البلاد لحكم فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى نحو عشرين أسرة مستقلة فى نحو عشرين مدينة أو مقاطعة ، ومن أشهرهم بنو عباد فى أشبيلية وبنو حمود بمالقة والجزيرة ، والأدارسة بغرناطة ، وبنو هود بسرقطة وبنو ذى النون بطليطلة ، وبنو جهور فى قرطبة . فأصبح الخطر من سقوط الدولة وتحطمها بارزا للعيان ، واهتبل نصارى الشمال الفرصة كما رأيت .

أما عن انتشار الإسلام و للغة العربية فى إيبيريا فسكتفى بما أورده مؤلف من كبار المسيحيين هو السير توماس أرنولد فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام » حيث يقول : « رحب بالمسلمين هؤلاء الأرقاء الذين حل بهم البؤس والشقاء ،

فى عهد المسيحيين الكاثوليك . وكان هؤلاء الأرقاء أول من تدين بالإسلام فى أسبانيا ... كما اعتنق الدين الجديد كثير من أشراف المسيحيين ، يضاف إلى ذلك عدد كبير من الطبقات الدنيا والوسطى دانوا بالإسلام عن إيمان ثابت » .

وسرعان ما أخذت دراسة اللغة العربية تحل محل دراسة اللغة اللاتينية فى جميع أرجاء البلاد حتى قال أحد القسوس : « إن شبابنا المسيحيين يسترعون الأنظار بتشبعهم بالبلاغة العربية ، فتراهم يتناولون كتب المسلمين ويطالعونها بلهف . وينافشونها فى حماسة وغيرة ، ويشيدون بذكرها ، ويمدحونها بكل ضروب التنميق فى اللفظ وحسن البيان ، على حين أنهم لا يفقهون شيئاً من جمال الأدب الكنسى . . . وأنت واجد بين جمهرة السوقة والعامة أشخاصاً لا يحصى عددهم ، يحيطون إحاطة تامة بالعبارات الفصيحة التى خلفتها اللغة العربية فى عصورها الذهبية ، حتى لقد استطاعوا أن ينظموا القصائد المقفاة ، تلك القصائد التى يتجلى فيها أسمى مراتب الجمال ، بل لقد صار بعضهم أمهر من العرب أنفسهم فى قرض الشعر .

ويختم سير توماس أرنولد هذا الموضوع بقوله : « قد بلغ تأثير الإسلام فى نفوس معظم الذين تحولوا إليه من مسيحيى أسبانيا مبلغاً عظيما ، حتى سحرهم بهذه المدنية الباهرة ، واستهوى أفئدتهم بشعره وفلسفته ، وفنه الذى استولى على عقولهم وبهر خيالهم ؛ كما وجدوا فى الفروسية العربية الرفيعة مجالا فسيحاً

لإظهار بأسهم ، وما تكشفت عنه هذه الفروسية من قصد نبيل وخلق قويم » .

أما من حيث نسبة من دخلوا فى الإسلام من الأسبان إلى العرب فيقول مؤرخ كتب سنة ١٣١١ م « إنه لم يكن من بين المائتى ألف من المسلمين الذين كانوا يعيشون فى مدينة غرناطة فى ذلك الحين أكثر من خمسمائة من أصل عربى ، على حين كان سائر هؤلاء المسلمين من أهالى بلاد الأندلس الأصليين تحولوا إلى الإسلام » .

الهنـــــد

لم تكن الهند فى سالف الأحقاب على الصورة التى نراها الآن ، بل كانت أقساماً ثلاثة : جزيرة مثلثة الشكل تمتد من قرب خط الاستواء إلى مدار السرطان وتكاد الجبال تحيط بها من جميع جهاتها ، يليها إلى الشمال بحر على شكل مثلث كذلك يصل بحر العرب بخليج البنغال ؛ وتطل على هذا البحر من ناحية الشمال قوس هائلة من جبال متوجة بالجليد تطوقه من بدايته عند بحر العرب إلى نهايته عند خليج البنغال . وينهمر على هذه الجبال ـ متى أقبل الصيف ـ مطر هو على بعض أجزائها أغزر مطر فى العالم بأسره ، ويذوب بعض ما يغطيها من الجليد . ويكتسح هذا وذاك قدراً لا يستهان به من تربة هذه الجبال ويلقيان به فى البحر الذى يفصلها عن الجزيرة .

ودأب المطر وذوب الجليد على عملهما ألوف السنين فامتلأ البحر غريناً ناعماً تكاد لا تجد به حجراً واحداً ، فإذا بالبحر قد استحال سهلا فيضياً متسعاً يجرى على سطحه أنهار عظيمة نسميها الآن نهر السند بفروعه الخمسة التى سمى سقيها « البنجاب » بمعنى أرض الأنهار الخمسة ، ونهر الكنج منضما إليه رافده الكبير جمنة ثم نهر برهما پوترا . وعلى الرغم من أن البحر قد أصبح سهلا متصلا بالجزيرة ، فإن أثر الانفصال القديم ما يزال ظاهراً للعيان بحيث يمكن تقسيم الهند ثلاثة أقسام كبيرة يختلف كل منها عن زميليه اختلافاً بيناً : أولها النطاق الجبلى الذى يفصل الهند عما حولها فصلا يكاد يكون تاماً كما

ستری ؛ وثانيها هذا السهل الذى يعد الجزء الشرقى منه من أخصب الأرضين بفضل ما يجلبه إليه نهر الكنج من ذلك الغرين الخصيب الذى من أجله قدس أهل البلاد هذا النهر العظيم ؛ وثالث الأقسام تلك الجزيرة القديمة التى سعى إليها السهل حتى التصق بحافتها الشمالية ، فلم تستجب لتقربه منها ، بل أبت عليه إلا توكيد العزلة ، فأقامت بينها و بينه فواصل ثلاثة : أولها سلسلة جبال وندهيا[1] التى تمتد من الساحل عند الطرف الغربى للمثلث الذى نسميه الدكن وتسير إلى الشرق حتى تكاد تغلق المثلث ، وثانيها خانق عميق حفره فى هضبة الدكن نهر نَرْبَدا الذى يصب فى بحر العرب ونهير سون الذى يصب فى نهر الكنج ، وثالثها سلسلة جبال سات بورا التى تبدأ من الساحل الغربى قرب مصب نربدا وتسير شرقاً محاذية لهذا النهر ولجبال وندهيا ثم تجاوز هذه الجبال فى اتجاهها الشرقى .

وكان من نتائج هذه العزلة التى اختارتها شبه جزيرة الدكن أن الأقدمين قسموا الهند قسمين : الهندوستان ويشمل السهل والجبال الشمالية ، والدكن وكان يطلق على كل المثلث الذى كان جزيرة من قبل . ومن نتائجها أن زهد أكثر الفاتحين فى التوغل فيها ، ولم ينزلوا بطرفها الجنوبى أبدا . وبذلك حافظ الذين اختاروا الإقامة فى هذا القسم الجنوبى على استقلالهم فى أكثر أدوار التاريخ بفضل جباله الوعرة وغاباته الكثيفة وشدة الحر والرطوبة فى بعض جهاته الغربية وشدة الجفاف وما يتبعه من القحط فى بعض جهاته الشرقية ،

---

(١) هذا هو الاسم كما يرسم بالحروف العربية فى اللغة الأردية ، ومن أسمائها الشائعة فندىا وفندى .

ومن أسوأ نتائج العزلة تخلف الدكن فى الحضارة من حيث الزمن ودرجة الرقى .

ولم تكتف الدكن بعزلتها إجمالا ، بل أقامت العوائق بين بعض ساكنيها وبعضهم الآخر : فمن ذلك أن جبال كهات[1] الغربية الوعرة منعت سكان السهل الساحلى من تخطيها إلى الشرق ، وبهذه العزلة اختلفوا عن بقية الهنود فى اللغة والعادات ؛ ومثل ذلك يقال عن كهات الشرقية . ونشأ عن هذا تعدد اللغات بحيث يتكلم سكان الهند ٢٢٥ لغة فى أقل تقدير . فإذا انتقل هندى من بيئته الصغيرة صار غريباً فى البيئات الهندية الأخرى لا يعرف لغاتها ولا عاداتها .

ولا تنتهى المفارقات فى الهند عند حدود الدكن ، بل تجاوزها إلى ما عداها من الأجزاء ولنضرب لذلك مثلا بالمفارقات بين البنغال — الذى يسمى جزء منه الآن الباكستان الشرقية — وكشمير : فالبنغال سهل فيضى لا يعلو مستوى سطح البحر إلا قليلا ، وكشمير بلد جبلى فى أعالى السند ؛ والبنغال خصب مزدحم بالسكان بينما كشمير قاحلة فى بعض أجزائها وقليلة السكان ؛ وأهم أعمال سكان البنغال الزراعة ، وأهم أعمال كشمير الرعى ؛ والبنغال به أنهار كثيرة صالحة للملاحة ثم هى على ساحل البحر ، وكشمير جد بعيدة عن البحر والوصول إليها جد عسير .

وتظهر المفارقات فى المناخ كذلك : من ذلك أن درجة الحرارة تختلف مما دون الصفر إلى ٥٢ مئوية ومنه أنه إذا اشتدت حرارة الشمس على كتلة اليابس الآسيوية خف هواؤها فجذب إليه الرياح الموسمية الصيفية التى تمطر

(١) هذا هو اسمها الأصلى ومن أسمائها الشائعة غات وغاته .

سحبها على الساحل الغربى ، فإذا عبرت جبال كهات الغربية قل مطرها فإذا بلغت القوس الجبلية وتكدست سحبها فى المنحنى الشرقى لهذه الجبال أفرغت فى ذلك المنحنى أغزر مقدار من المطر سمع به الناس ، وعجزت عن عبور تلك الجبال فاضطرت أن تسير محاذية لها فى اتجاه شمالى غربى تلقى على سفوحها قدراً من المطر يقل كلما بعدنا عن ذلك المنحنى المطير .

وإذا فارقت حرارة الشمس ذلك اليابس الآسيوى وانتقلت إلى المحيط خف هواؤه وجذب إليه الرياح من ذلك اليابس فبدأت تلك الرياح جافة ثم تشبعت بشىء من رطوبة خليج البنغال فأسقطت شيئا من المطر على السواحل الشرقية للدكن ولجزيرة سيلان . ومن هذا يتضح أن المنطقة الواقعة بين القوس الجبلية الدائرة بالهند وبين جبال كهات الغربية — وهى منطقة منخفضة — تمر عليها الرياح الموسمية الصيفية من الشام لا تجود عليها بشىء من ماء سحبها الثقال . فإذا جاء الشتاء لم تحظ هذه المنطقة بقطرة من سحب الرياح الموسمية الشتوية . فهى لذلك صحراء جدباء صيف شتاء ، هى صحراء تهار[1] الواقعة إلى الشرق من حوض نهر السند الأدنى .

فلا غرو إذا تمثلت الهند لخيال العالم أرضا لكل عجيب ، وأثارت حب الاستطلاع فى العلماء والفنانين والشعراء والسياح ، وترامت شهرتها إلى شعوب بدوية فيممتها واستوطنتها ولم يرض أكثر هذه الشعوب بها بديلا ، وتسامع الغزاة بخيراتها فاشرأبت أعناقهم لفتحها والسيطرة عليها ، ولا غرابة فى هذا كله : فالهند كما مر بك ليست إقليما طبيعياً ذا غلات محدودة بحكم موقعه

(١) هذا هو الاسم الذى تعرف به فى الهند ، ومن أسمائها الشائعة عندالأجانب نار وثر

وتضاريسه ومناخه ، و إنما هى عالم قائم بذاته يضم أقاليم طبيعية متباينة أشد التباين : فمنطقة فى أعالى هماليا(١) وكوراكورم يكسوها الجليد كأنها فى القطب الشمالى ، ومنطقة على ساحل الدكن تقاسى حرا كأنها على خط الاستواء ومنطقة فى سفوح هماليا تنعم بربيع أبدى .

و إذا وضعت يدك بين خط عرض ٢٥° شمالا وهو الذى يمر قريبا من إدفو وخط عرض ٣٠° شمالا المار بالقاهرة وحركت يدك على خريطة العالم إلى ناحية الشرق لمست فى جنوب السند صحراء تهار تشكو الجفاف ولمست فى البنغال أغزر بقاع العالم أمطاراً . ومن ثم كانت الهند متنوعة الغلات الطبيعية والزراعية فضلا عما ذاع عنها من كثرة الماس والياقوت واللؤلؤ وغيرها من الأحجار الكريمة .

ولعل كثرة خيراتها هى التى دفعت الطبيعة إلى تسويرها من جميع جهاتها : فأغلقتها من ناحية الشمال بأمنع سياج فى الدنيا بأسرها : ذلك هو جبال هماليا التى تمتد طولا أكثر من ٢٤٠٠ كيلو مترا وتتسع عرضاً من ١٦٠ إلى ٣٣٠ كيلومترا تتلاحق فى هذا العرض سلاسل متوازية تقريباً تفصل بينها وديان هائلة وهضاب شاسعة تجعل كل غزو مسلح من هذه الناحية أمراً محالا . ومن أجل هذا لم ينزل بهذه الوديان غزاة البتة ، و إنما تسلل إليها مهاجرون أكثرهم من التبت وأقلهم من الهند .

وما أن استقر هؤلاء المهاجرون بتلك الوديان حتى أعفتهم الطبيعة من

---

(١) هماليا معناها موطن الثلج .

الغزو الأجنبي وحفظت عليهم استقلالهم إلى اليوم ، وأشهر الوديان الواقعة فى أواسط هماليا « نيبال » وهو واد طوله ٧٠٠ كيلومتر وعرضه ١٢٥ كيلومتر .

على أن الطبيعة لم تكتف فى حماية الهند من الشمال بهذا السياج المتين ، بل شدت عضده بسياجين آخرين أحدهما إلى الشمال منه وهو صحراء التبت العظيمة الارتفاع المكسوة بالجليد الخالية من السكان ، والآخر إلى الجنوب منه وهو مستنقع[1] على سفوح هماليا الجنوبية عامر بعدد لا يحصى من الوحوش الضارية تغدو فيه وتروح لا يزعجها شبح إنسان ، لأن تفشى الأمراض وبخاصة أنواع الحمى يجعل إقامة الإنسان فى هذا المستنقع غير مستطاعة .

وإذا قاربت هماليا نهايتها الشرقية قامت جبال أسام بحماية الهند من الشرق وعاونتها فى تلك الحماية مستنقعات[2] واسعة النطاق فى دلتا نهر الكنج تكثر فيها الأشجار والنباتات الطويلة والمتسلقة ، وتأوى إليها النمور والفيلة والتماسيح والأفاعى ، وتنعدم فيها الطرق بحيث يندر أن يخاطر صياد بالتوغل فيها . وإذا قاربت هماليا نهايتها الغربية نابت عنها جبال كورا كورم وهندوكوش وسليمان بحيث تدور هذه الجبال — وما يرتبط بها من الهضاب — بالهند من ساحلها الشرقى إلى ساحلها الغربى .

وهذه السواحل ليست أقل حمية فى مطاردة الأجنبى . وتكاد لا تسمح له بمدخل إلى البلاد ، بل إنها لتضن بمكان يصلح بطبيعته لأن يكون ثغرا ، وفضلا عن ذلك فإن الساحل الغربى[3] أيام هبوب الرياح الموسمية الصيفية

(١) تعرف هذه المنطقة باسم ترائى .

(٢) يعرف أشد أجزاء هذه المستنقعات خطرا باسم سندربن .

(٣) يعرف أكثره باسم ساحل ملبار .

تتعاظم أمواجه فتتلاطم بالساحل فى شدة مزعجة . والحال فى الساحل الشرقى[١] قريب من ذلك . أما ساحل البنغال فأشد نكراً ، لأن تدفق مياه نهر الكنج يدفع أمواج البحر عن الساحل بحيث يكاد الاقتراب منه يكون متعذراً . وليس قيام مثل بمبى[٢] ومدراس وكلكته إلا نتيجة لجهود بشرية جبارة بذلت فى إنشائها ، ونفقات سخية صرفت لوقاية السفن فيها . وعلى الرغم من هذا كله لم يعظم شأن بمبى إلا بعد فتح قناة السويس وبعد إنشاء خطوط حديدية ربطتها بداخل البلاد .

ولا يكاد الأجنبى يهبط بالساحل الغربى حتى تفجأه جبال كهات الغربية وهى سلاسل متلاحقة تنحط عمودية على سهل ساحلى ضيق وتقترب فى جزئها الجنوبى من الساحل بحيث تكاد تمحو السهل . ولذلك يصعب اجتيازها والتسرب خلالها إلى الداخل . فإذا هبط بالساحل الشرقى فهناك جبال كهات الشرقية ، وهى — وإن كانت أقل اتصالا وأخف وعورة من أختها الغربية — لا تشجع على الاتصال بين السهل الساحلى وداخل البلاد ، ويعاونها فى ذلك انتشار الأوبئة فى هذه المنطقة .

وكان من أثر انعدام الثغور الصالحة ، وقيام الجبال الشاهقة خلف السواحل أن زهد الفاتحون فى غزو الهند عن طريق البحر .

أما من ناحية البر فإن الطبيعة لم تحرم الناس من الدخول إلى الهند وإن جعلت ذلك الدخول جد عسير . وأشهر هذه المداخل ثلمة تجوفها برهما بوترا تسلل خلالها أناس قدموا من بورما والصين وتوغلوا فى وديان كثيرة مليئة

(١) يعرف أكثره باسم ساحل كورومندل .
(٢) هذا اسمها الاصلى ومن أسمائها المشهورة بمباى .

بالغابات الكثيفة بحيث لا يوجد طريق معبد ، إذ غزارة الأمطار هنالك تحول الأنهار سيولا والسيول غدرانا تنبت فيها الأعشاب الطويلة التي تطمس معالم الطرق وتنشر الأبخرة المفسدة للهواء بحيث لا يوجد على وجه الأرض بقعة مجهولة كتلك المنطقة على الرغم من قربها من البقاع المعمورة . والذين تسربوا إلى الهند عن هذا الطريق كانوا من القلة بحيث لم ينشئوا دولا . وكل ما تركوه من أثر إنما كان فى لهجات بعض السكان .

أما مداخل الهند التي يمكن اجتيازها فى مشقة عظيمة فتوجد فى الغرب وأهمها ثلاثة أولها يحاذى ساحل بلوجستان وساحل السند ولا بد لمن يختار هذا الطريق من قطع صحراوات قفر قليلة الماء والسكان بل إن بعضها خال كلية من الماء والسكان : وهذا المسلك يؤدى إلى نهر السند كما يؤدى إلى صحراء تهار .

وثانيها ممر بولان ويقع عند النهاية الجنوبية لجبال سليمان حيث تتصل هذه الجبال بهضبة بلوجستان الحالية . وهذا الممر يخترقه اليوم طريق حديدى يصل ما بين الهند وبلوجستان .

والممر الثالث ـــ وهو أهم المداخل جميعاً ـــ ممر خيبر الذى أحدثه نهر كابل فى سيره للاتصال بنهر السند ويبلغ طول هذا الممر ٤٨ كيلو متراً . وقد عبد الإنجليز على امتداده طريقاً جيداً وأقاموا على حراسته من ناحية الهند حصنين منيعين هما أتوك وبشاور .

ومن هذه الممرات الثلاثة ـــ وبخاصة ممر خيبر ـــ دخل إلى الهند جميع الغزاة . وأقدم من عرف من سكان الهند أناس على الفطرة كانوا يتنقلون على شواطىء الأنهار فى درجة منحطة من الحضارة . وكل ما بقى من آثارهم إنما هو ما كشف عنه أخيراً من رءوس سهام مصنوعة من الظران والكوارتز

ومن مقاشر وفئوس . وهؤلاء السكان تدرجوا فى الحضارة ببطء فصقلوا أدواتهم الحجرية وثقبوها وركبوا لها مقابض ثم صنعوا حلياً من الذهب والفضة وآنية من الفخار ما يزال يماط اللثام عنها فى مقابرهم العجيبة وهى قطع من الحجر ينحتونها و يدفنون الميت فيها واقفاً .

وبقى هؤلاء السكان فى وديان الأنهار وفى السهول حتى داهمهم غزاة اضطروهم إلى الفرار إلى القسم الجنوبى من الهند وهو القسم المعروف باسم الدكن ، ثم ما زالوا بهم حتى لجأ بعضهم إلى أعالى الجبال الشمالية من هذا القسم واعتصم الأكثرون بجباله الجنوبية فى الغابات الكثيفة والقنن المنيعة ومنهم نحو عشرين مليونا ما برحوا غارقين فى خرافاتهم القديمة يعبد بعضهم الأرواح والجن والشياطين و يعبد آخرون الأفاعى والأشجار والأنهار وكل ما يوحى بالدهشة والفزع . ولم يتأثر هؤلاء الأقوام بالحضارات التى توالت على الهند اللهم إلا أن البريطانيين أجبروهم على الامتناع من تقديم القرابين البشرية ومن قتل الأطفال والحروب القبلية .

وهؤلاء وغيرهم من سكان الدكن يتكلمون لغات تسمى فى مجموعها الدراويدية وتشبه بعض اللهجات الموجودة فى سيبيريا وفنلندا . ومن ثم يظن أنهم دخلوا الهند من مداخلها الطبيعية فى الشمال الغربى ثم جلوا إلى مواطنهم الحالية .

وأول شعب دخل الهند فيما يقرب أن يكون تاريخا صحيحا أناس طوال القامة شقر من الجنس الآرى قصدوها قبل مولد المسيح عليه السلام بنحو ألفين من السنين وكانت لغة هؤلاء السنسكريتية وعنها تفرعت جميع لغات

القسم الشمالى من الهند . والسنسكريتية ضمن مجموعة اللغات التى منها الإغريقية والكلتية والتيوتونية واللاتينية الغربية .

وهؤلاء الآريون هم أصل الهندوس وقد دخلوا الهند عن طريق الممرات الغربية غازين مغالبين على العيش فكانوا يحتقرون الدراويديين السالفي الذكر ويصفونهم بأنهم سود لا أنوف لهم ولا آلهة ، كفار يأكلون اللحم نيئا ، وأنهم لا ينتسبون إلى الجنس البشرى . ومن أجل ذلك جعلوا يطاردونهم ويستأصلونهم ما استطاعوا . وساعدهم على ذلك أنهم كانوا يعرفون الدروع والخوذات والخيل وعربات الحرب بينما كان خصومهم — وما يزالون — يكتفون بالقوس والنشاب .

ولم يمض كثير حتى فتح هؤلاء الآريون أرض الأنهار الخمسة — البنجاب — ثم انتشروا بالتدرج البطىء فى سهل السند والكنج وحالت طبيعة الدكن دون توغلهم فيها . ومن هذا المستقر نشروا حضارتهم بفضل المدارس التى أنشأها قسوسهم وهم الذين عرفوا فيما بعد باسم البراهمة . وما يزال هؤلاء القسوس أو البراهمة أصحاب النفوذ فى كل قرية هندوكية يحترم العامة علمهم ويجلون ما يدعون إليه من السمو الخلقى . بل إنهم يعدونهم معبرين عن الرب ، وأنهم وحدهم خلقوا من رأسه ، بينما خلق الملوك والمحاربون من ذراعيه بقصد غزو الكفار وإخضاعهم للبراهمة . وأما سكان الهند الأصليون — وهم السود الذين لا أنوف لهم — فقد خلقوا من قدمى الرب للقيام بالأعمال الدنيئة . ومن هذا الأصل نشأ انقسام سكان الهند تبعاً للون والجنس والمهنة والدين طوائف كل طائفة منها منعزلة عن غيرها خاضعة لتقاليدها

وعاداتها الخاصة . وبلغ من جمود هذه الطوائف أن أصبحت الفوارق بينها كأنها قضاء من الرب أوحى به إلى البراهمة منذ الأزل .

ودخل الهند بعد ذلك الإسكندر المقدونى عن طريق ممر خيبر وعبر السند قرب أتوك على جسر من السفن وذلك سنة ٣٢٧ ق . م . وفتح الإسكندر القسم الغربى من البنجاب ثم أبى جنوده التقدم شرقاً فغادر أكثر جيشه البلاد عن طريق ممر خيبر وغادرها هو مع القسم الأصغر عن طريق بلوچستان فقاسى أهوالا ومشقات فنى بسببها نصف من رافقوه من العطش والمشقة . وجلا بقية الإغريق عن البنجاب فى مدى عشر سنين . وعلى الرغم من ذلك فقد كان غزو الإسكندر للهند فاتحة اتصال بينها وبين أوربا استمر قروناً طويلة .

وقد علمت أن العرب اتصلوا بالهند من عصور سحيقة وكان هذا الاتصال عن طريق البحر يمخرونه فى سفن صغيرة تحاذى الساحل من مسقط وغيرها حتى تصل إلى جزيرة سيلان . وعلمت كذلك أنهم كانوا يجلبون نفائس الهند من الحرير واللؤلؤ والجواهر والياقوت والقرفة والتوابل والفلفل والزنجبيل والقرنفل وجوز الطيب وصمغ اللك المعروف اليوم باسم « جو مالكه » وغير ذلك مما زعموا للأوربيين أنه من غلات بلادهم وأنهم يقاسون فى الحصول عليه شدائد تبرر الأثمان الباهظة التى كانوا يفرضونها . فلما جاء الإسلام وملك المسلمون بلاد فارس وجد خلفاء الأمويين أن قبائل الأفغان لا تنفك تغير على ما جاورها من دولتهم فكلفوا محمد بن القاسم الثقفى عاملهم على مكران أن يرد شر هذه القبائل فاضطر محمد إلى دخول السند .

واختار الطريق الساحلى فلم يكن له بد من قطع صحراء مقفرة قبل أن

يصل إلى ثغر الدَّيْبُل وكان إذ ذاك على مصب هام من مصبات نهر السند الذى سماه العرب نهر مهران . أما الآن فقد بعد الساحل عن الديبل[1] فحلت محلها كراتشى عاصمة الباكستان فى عصرنا هذا . وسار محمد مع نهر السند متجها إلى الشمال حتى بلغ ملتان . وبذلك تم له فتح جزء من البنجاب . وبدأ الناس فيه يعرفون الإسلام ويعتنقه فريق منهم ، على الرغم من أن العـــرب لم يستقروا فيه طويلا .

وجاء بعد ذلك محمود الغزنوى فاقتحم الهند ١٧ مرة فى غضون ٢٥ سنة ونجح سنة ٤٢١ هـ -١٠٣٠ م فى امتلاك الجزء الغربى من البنجاب واتخذ لاهور قصبة لما فتحه . وكان ذلك أول حكم إسلامى مستقر فى الهند .

وتتابعت غزوات المسلمين لتلك البلاد وكان أعظم هذه الغزوات وأبعدها أثراً الغزوات التى قام بها بابر — بين سنة ١٥٢٥ وسنة ١٥٣٠ — والتى استولى بها على الهندستان — أى شمال الهند — وأسس الدولة المغولية التى بقيت بالفعل أو بالاسم إلى سنة ١٨٥٨ .

وقد قنع الأباطرة الأول من هذه الدولة بالهندستان علما منهم بالعقبات الطبيعية التى تحول دون إخضاع الدكن من قيام الفواصل السالفة الذكر والتى من أهمها جبال وندهيا وجبال سات بورا ثم وعورة جبال كهات الغربية وكهات الشرقية والجبال الواقعة فى أقصى جنوب الدكن : هذه الاعتبارات الجغرافية أقنعت هؤلاء الأباطرة بتجنب الاشتباك فى الدكن . فلما تولى الحكم أورانغ زيب (١٦٥٨ — ١٧٠٧) صمم على مخالفة خطة أسلافه فقضى ٢٦ عاما

(١) خرائب الديبل تقع الآن إلى الجنوب الشرقى من كراتشى على نحو ٧٧ كيلو مترا

يحاول إخضاع الدويلات المنبثة فيها . فقهرته طبيعة البلاد واستنزفت ثروة الدولة فبدأت تضمحل كما حدث فى فرنسا أيام لويس الرابع عشر .

وقد أجمل العلامة جستاف لوبون فى كتابه « حضارات الهند » أثر المسلمين فى تلك البلاد بقوله: «مارس المسلمون فى الهند مثل النفوذ الذى مارسوه فى جميع أقطار العالم التى فتحوها . ولا أمة — كالمسلمين — تم لها من النفوذ البالغ ما تم للمسلمين كما أثبتناه فى كتابنا « تاريخ حضارة العرب » . ولا تستثن الرومان من ذلك ، ففى مدة سلطان المسلمين الذى دام فى الهند سبعة قرون غير فريق كبير من الشعب الهندوسى دينه ولغته وفنونه تغييراً عظيما ، وظل هذا التغيير باديا بعد زوال ملكهم .

فعلى ما تعلمه من عدم تأثير الغزو الإغريقى للهند ، وعلى ما تراه من ضآلة النفوذ الإنجليزى فى الهند تجد خمسين مليونا من الهندوس يدينون بدين محمد »[1] .

وقد سبق لك أن الهند لم تفتح قط عن طريق البحر . ومن الخطأ البين زعم بعض الكتاب أن البريطانيين غزوها من هذا الطريق : ذلك بأن البريطانيين لم يدخلوا الهند فاتحين ، و إنما اتصلوا بها للتجارة منذ سنة ١٥٨٣ وبلغتها أول سفنهم بعد ذلك بثمانى سنين وأسسوا شركة الهند الشرقية بقصد تجارى بحت فى اليوم الأخير من سنة ١٦٠٠ ، وظلت سفن هذه الشركة تغدو وتروح اثنين وثلاثين عاما دون أن تفكر الشركة فى غير التجارة . ثم نالت من أحد حكام الهند المسلمين حق إنشاء فندق على الساحل الشرقى يكون مقراً

(١) كان هذا فيما مضى ، أما الآن فيبلغ عدد المسلمين فى الهند نحو ثمانين مليوناً .

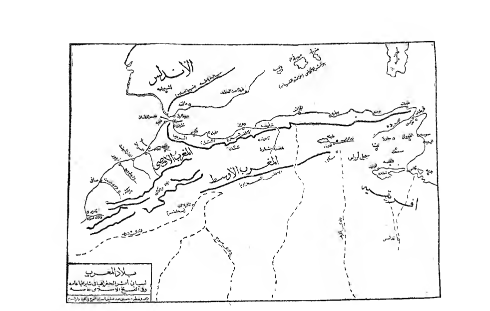
لو كلأتها وتخزنا لسلمها ، ثم تبدى لها كما تبدى للفرنسيين من قبل أن ضعف الحكومة المركزية وتنازع الأمراء فيما بينهم يتيح لها فرصا للتدخل فى السياسة المحلية بإعانة أمير على آخر ، ووجدت من اختلاف الطوائف ما يسر لها تجنيد هنود تستولى بهم على مساحات من البلاد ، وما زالت دائبة على ذلك حتى ملكت الجزء الأعظم من الهند بمال الهند وجنود الهند .

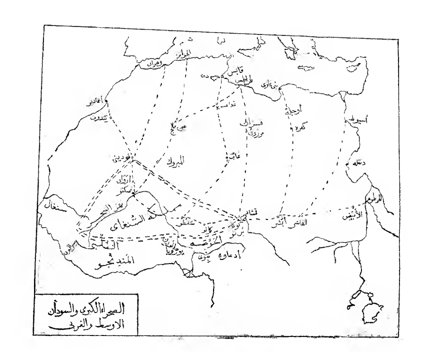
وإذن ، فلا مجال للقول بأن الدولة البريطانية غزت بلاد الهند عن طريق البحر أو عن طريق البر ، لأنه لم يحدث غزو من جانبها إنما هو تغلغل شركة تجارية استغلت ظروفا خاصة ، حتى أصبحت صاحبة الأمر والنهى فى القارة الهندية — كما يسميها أهلها — فلما قامت الثورة فى وجه الشركة سنة ١٨٥٨ رأت الحكومة البريطانية أن تعاون فى القضاء على تلك الثورة وأن تضم الهند إلى التاج البريطانى . وذلك بعد أن مضى أكثر من قرنين على رسوخ قدم شركة الهند الشرقية بتلك البلاد .

ومنذ صارت الهند أنفس جوهرة فى التاج البريطانى حرصت بريطانيا عليها أشد الحرص ومن أجلها احتلت وفصلت بين شقى وادى النيل .

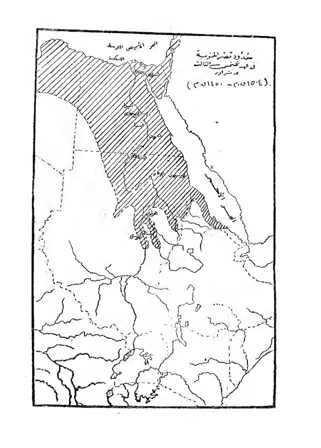
والآن — وقد تركت الهند لأهلها — سقطت آخر حجة لها فى البقاء بوادى النيل ، وأصبح المنطق يقتضيها أن تتركه لأهله يعيدون إليه سالف مجده ويرقون به إلى الدرجة السامية التى يخوله إياها موقعه الجغرافى الممتاز .

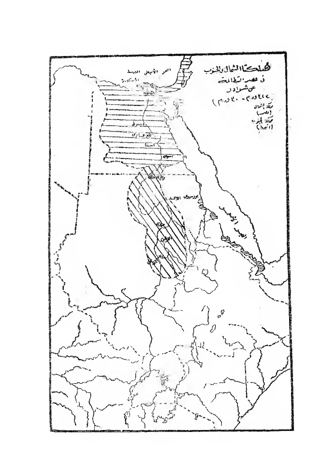
الفهرس


بلاد المغرب
لبيان أثر الجغرافيا في تاريخها عامة
وفي الفتح الإسلامي خاصة
الأندلس
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
إفريقية
جبل أوراس

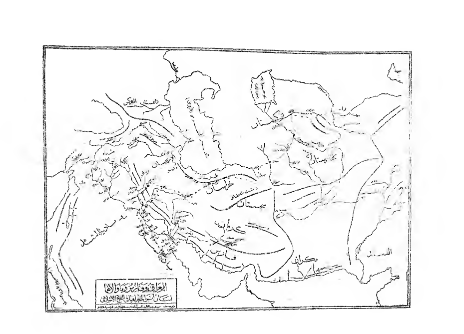


الصحراء الكبرى والسودان
الاوسط والغربي

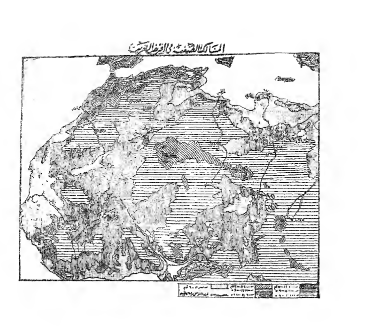

حدود مصر الجنوبية
في عهد تحتمس الثالث
عن شرادر
(١٥٠٤ ق م – ١٤٥٠ ق م)
البحر الأبيض المتوسط
الإسكندرية
البحر الأحمر
الخرطوم

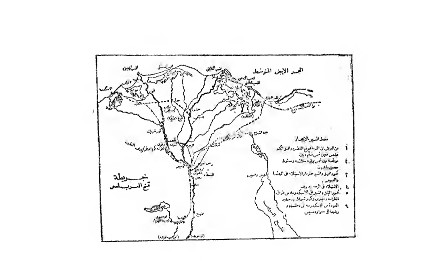

مملكتا الشمال والجنوب
في عصر البطالمة
عن شرادر
مملكة الشمال
(مصر)
مملكة الجنوب
(أثيوبيا)
البحر الأبيض المتوسط
الإسكندرية
القاهرة
أسوان
البحر الأحمر

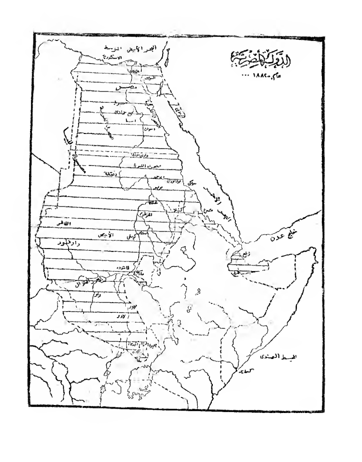

كينيا
مقديشو
نيروبي
ممبسه
أوجيجي
دار السلام
بحيرة تنجانيقا
بلاد تنجانيقا
بحيرة نياسا
موزنبيق
سوفاله
ناتال
دربان
مدينة الرأس
شرق افريقية

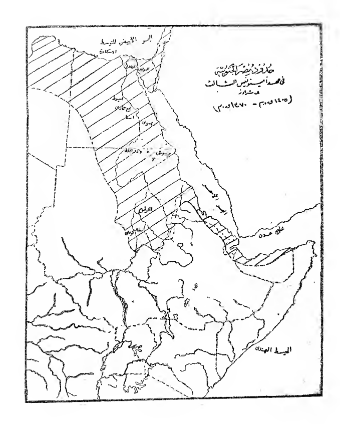

العراق وفارس وما والاهما
خراسان
فارس
كرمان

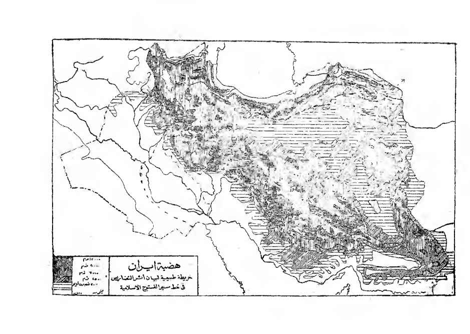
المسالك الطبيعية في افريقيا الغربية



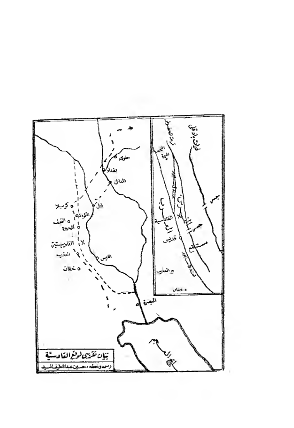

البحر الابيض المتوسط
خريطة فتح العرب لمصر


الدولة المصرية
عام ١٨٨٠م ...
البحر الأبيض المتوسط
الاسكندرية
مصر
أسوان
وادي حلفا
دنقلة
سواكن
كسلا
الخرطوم
الفاشر
الأبيض
فاشودة
لادو
خليج عدن
زيلع
المحيط الهندي

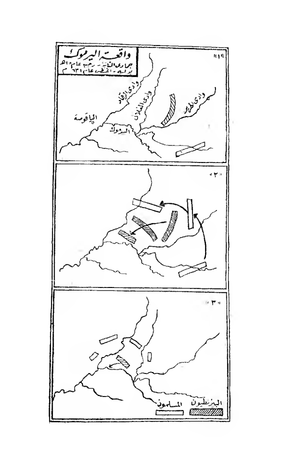

حدود مصر الجنوبية
في عهد أمينوفيس الثالث
(١٤٠٥ ق.م - ١٣٧٠ ق.م)
البحر الأبيض المتوسط
الاسكندرية
السويس
اسيوط
نجع حمادي
اسنا
اسوان
البحر الأحمر
خليج عدن
الخرطوم
المحيط الهندي

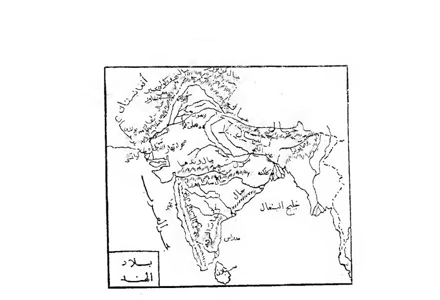


هضبة ايران
خريطة طبيعية لبيان أثر التضاريس
فى خط سير الفتوح الاسلامية



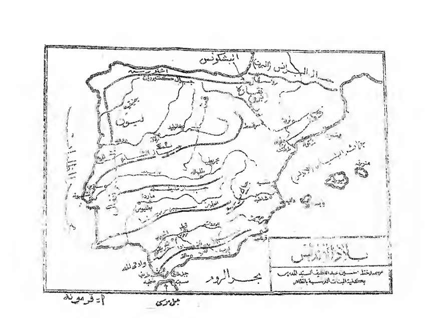
بغداد
المدائن
بابل
كربلا
الكوفة
النجف
الحيرة
القادسية
العذيب
خفان
أليس
البصرة
فرات بادقلى
جسر
الفرس
العرب
القادسية
قديس
مستنقع
العذيب
خفان
بيان تقريبي لموقع القادسية
رسمه وخطه حسين عبد اللطيف السيد


واقعة اليرموك
جمادى الثانية - رجب عام ١٥هـ
يوليه - أغسطس عام ٦٣٦م
«١»
وادي الرقاد
وادي العلان
وادي الحرير
الياقوصة
اليرموك
«٢»
«٣»
البيزنطيون
المسلمون

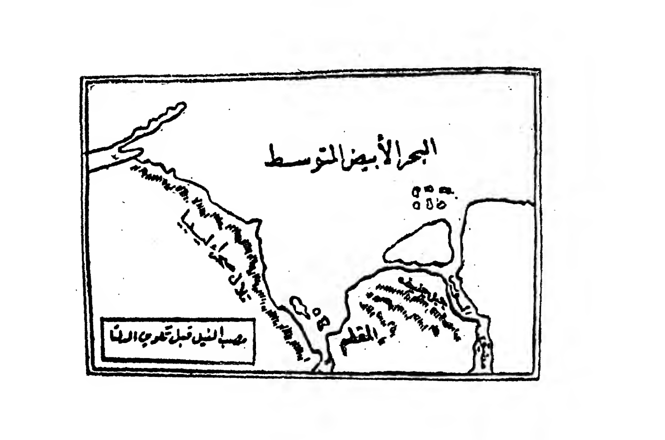


بلاد
الهند
أفغانستان
بشاور
لاهور
صحراء تهار
كراتشي
جبال وندهيا
كلكته
خليج البنغال
مدراس
سيلان

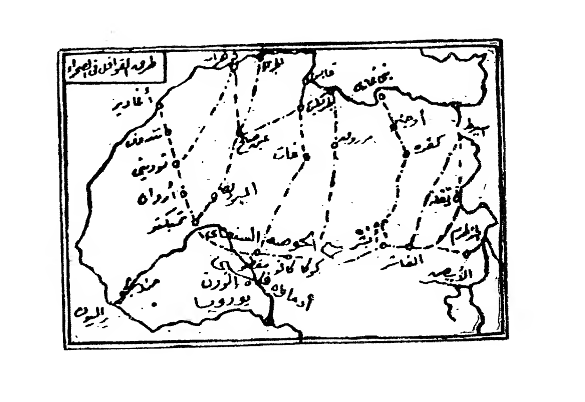

بلاد العرب
الربع الخالي
حضرموت



البشكونس
ليون
بلد الوليد
منورقة
ميورقة
مالقة
جبل طارق
سبتة
طنجة
بحر الروم
جبل موسى
ق = قرمونة
بلاد الأندلس
رسم وخط حسين عبد اللطيف السيد المدرس
بكلية البنات الدرسية بالقاهرة



مصب النيل قبل تكوين الدلتا


طرق القوافل في الصحراء
أغادير
تمبكتو
غات
مرزوق
قابس
أوجلة
الكفرة
أسيوط
الفاشر
الأبيض
أبشر
كوكا
كانو
أدماوه
يوروبا
عين صالح

مطبعة نهضة مصر